

الأستاذ الدكتور

جابر قميحة

الابتلاء

وأثره في حياة المسلمين

تقديم

المستشار عبد الله العقيل

مركز الحضارة للبحوث والدراسات والتدريب

الدكتور جابر قميحة



تقديم

المستشار عبد الله العقيل





ZORLUKLA SINANMA
ve
Müslümanların Hayatında Etkisi



Cabir Kumeyha












النادي الشبابي



«**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له**» (رواه مسلم).

في هذا الحديث يلخص من أوتي جوامع الكلم (صلوات الله وتسليماته عليه) حال المؤمن، ويصف بناءه النفسي المثير للدهشة والإعجاب.. ذلك البناء الذي يتقبل عطاء الخير والشر معًا بذات التوازن والاستسلام العميق، فلا يفتنه الخير، ولا يجزعه الشر، لا تخلب عقله السراء، ولا تذهب بيقينه الضراء.. فهو في الحالين محتفظ بسكينته، معتصم بخالقه، مصدر هذا العطاء.. يشكر ويصبر، ويفوز بشرف الإيمان الذي أنعم الله عليه به ومعه هذه السكينة النفسية التي يُحرم منها سواه من غير المؤمنين ذلك هو المؤمن حين يبتلى بالخير أو الشر فتنة، ولكنه لا يفتن بل يدرك شيئًا من حكمة هذا الابتلاء فيطيب نفسًا به ويزداد ثباتًا ويقينًا.

ذلك هو المؤمن الذي يشكل أساس بنيان الأمة وركيزة عمرانها - وتمثيل موقفه من الابتلاء محكًا يقاس إليه مدى تماسك وقوة مجتمعه بل أمته كلها.

وبهذا الفهم تحرك المسلمون الأوائل، فكانوا نماذج مذهلة في التعامل مع الابتلاءات تعاملًا جعلهم يتفرغون لبناء الدولة الإسلامية الأولى بنفوس وعقول وقلوب فتية لم يفت الابتلاء في عضدها بل محصها وزادها ثباتًا وحكمة.

وهكذا يجب أن يكون أثر الابتلاء في حياة المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. فهذا الابتلاء ليس مجرد قسمة فردية تصيب أحدًا، بل إرادة إلهية تنطوي على هدف التمحيص والتمييز والتنقية والفرز، وتطهير الصف من عوج

الجازعين والمفتونين معًا!

ولو لم يكن هذا هو فعل الابتلاء في حياة خير أمة لما سادت سواها من الأمم، ولما كانت حضارتها منبع نور ورقي ونهضة لكل الحضارات، بل إن استقراء تاريخنا الإسلامي قد يكشف مدى وثاقة الصلة بين قوة الأمة أو ضعفها وموقف أبنائها من الابتلاء سواء كان فرديًا أو جماعيًا يتمثل بشكل خاص في مناهضة أهل الباطل لأهل الحق، ومحاربة المشروع الإسلامي ومناوأة كل خطوات الإصلاح والتغيير.

وهذا هو الابتلاء الأكبر في حياة أمتنا والذي علينا أن نصبر في مواجهته صبرًا إيجابيًا يجمع بين التسليم بقضاء اله والوعي بأساليب المواجهة، والمعنى في طريق العمل البناء بعزم وحزم.

تلك بعض ملامح صورة الابتلاء، كما يجب أن نراها ونفهما، وذلك هو بعض دوره كما يجب أن ندركه، ومن منطلق أهمية الابتلاء في حياة الأمة يأتي هذا الجهد التوثيقي الرائد الذي نهض به **د. جابر قميحة** المفكر والشاعر الإسلامي الكبير (رحمه الله) متصديًا لهذه القضية المحورية، وراصدًا تجلياتها في القرآن والسنة ثم الواقع الإسلامي، ومعددًا لنماذجٍ من ابتلاء المؤمنين وكذلك غير المؤمنين ممن افتتنوا بالخير فكان ذلك وبالًا عليهم، وتجيء خاتمة هذا الجهد المشكور لتلخص فوائد الابتلاء ومغانمه، وتقدم رؤية عملية لمساعدة الأقليات الإسلامية المبتلاة بالاضطهاد العنصري والديني والعرفي على الخروج من عثرتها.

رحم اله مؤلف هذا الكتاب.. وشكر لفضيلة **المستشار عبد الله العقيل** – مد الله في عمره – الذي تفضل بكتابه مقدمة هذا الكتاب؛ تحملًا للمسؤولية الدعوية، ووفاءً بحق الأخوة التي جمعته بالراحل الكريم **د. جابر قميحة**.. ولعل الله يثقل بجهادها في ميدان الثقافة الإسلامية ميزاني حسناتها، ويبارك في عطائهما الممتد.



تقديم

بقلم/

المستشار عبد الله العقيل
الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي - سابقاً

الابتلاء سنة إلهية لا ينجو منها أحد، بل ربما زاد بعض البشر على بعض في البلاء، إذ يرتبط الابتلاء بقيم متعددة كالصبر واليقين والثبات والتفاؤل والتوكل والثقة بالله، لذلك يلحق الإنسان من البلاء بقدر تحمله وتغلغل تلك القيم في قلبه، وهو ما يوحي به قول رسول الله (ﷺ): «**يبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء**»، وقوله (ﷺ): «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

إن هذا الابتلاء هو في الحقيقة اختبار من الله للعبد ليرى ما سيصنع، لذلك فالعاقل يعلم أن اختيار الله وقدره دائمًا خير له في كل الأحوال خيرًا كان أم شرًا، وهذا ما أشار إليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حين قال: «**ما ابتُليتُ ببلية إلا كان لله عليَّ فيها أربع نِعم: إذْ لم تكن في ديني، وإذ لم أحرم الرضا، وإذ لم تكن أعظم، وإذ رجوت الثواب عليها**».

ولنا في قصة نبي الله موسى مع الخضر (عليهما السلام)، التي وردت في سورة الكهف، خير شاهد على لطف الله بعباده في قضائه، قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف: 79 - 82).

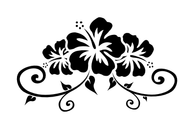
وليس الابتلاء على مستوى الأفراد فحسب، وإنما يقع أيضًا على مستوى الجماعات والشعوب والدول، ونحن نرى في ذلك سلسلة من المحن لا تنتهي سواء كانت هذا الابتلاءات جرت بأيدي البشر أو بغيرهم، ولكن المهم في كل ذلك هو التمسك بفقه الابتلاء، ومعرفة كيفية مواجهته والحد من آثاره.

وكتاب أخي **الدكتور جابر قميحة** (رحمه الله) - **الابتلاء وأثره في حياة المسلمين** - الذي أشرف بالتقديم له، والذي يقوم على طباعته ونشره وتوزيعه **مركز الإعلام العربي** - هذا الكتاب يوضح معنى الابتلاء والفرق بينه وبين البلاء والفتنة والاختبار والتكليف في اللغة وفي السياق القرآني.

ويوضح الكتاب هدي القرآن الكريم والسنة النبوية في الابتلاء وما يرتبط به من حقائق وقيم وتوجيهات، ويعرض صور الابتلاء في الأمم الغابرة، كما عرضها القرآن الكريم، ومنها الابتلاء بالسراء، والابتلاء بالضراء، والابتلاء بالآيات، كما حدث مع ثمود وناقة صالح.

ولا يفوت الدكتور جابر (رحمه الله) ذكر فوائد الابتلاء والدروس المستفادة منه وإسقاطها على حياتنا الحاضرة في شتى المجالات، وخصوصًا السلوكية والتربوية، كما قدم رؤية لما يمكن أن يكون حلاً، أو إنقاذًا للشعوب المسلمة والأقليات الإسلامية في المحن التي تستبد بها، وتكاد تخنقها خنقًا.

رحم الله أخي الدكتور جابر قميحة، وأسكنه فسيح جناته، ونفع بعلمه، وجعله صدقة جارية له إلى يوم القيامة.





الحمد لله رب العالمين، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وبه نستدفع المحن، ومنه نستجلب المنن.

ونصلي ونسلم على رسول الله وآله أجمعين عدد ما أحاط به علم الله، وخط به قلمه، وأحصاه وكتابه.

أما بعد:

فيسعدني أن أقدم للقارئ هذا البحث (الابتلاء وأثره في حياة المسلمين).

والموضوع - كما هو ظاهر من عنوانه - موضوع واسع المدى والأرجاء، وما زال يحتاج إلى بحوث متعددة على نحو أوفى؛ فموضوع كل فصل من فصول البحث الذي أقدمه يصلح أن يتناوله الباحث ليكتب فيه بحثًا كاملاً مستقلاً.

وتبدو أهمية موضوع هذا البحث في العوامل والمظاهر الآتية:

1 - أن الابتلاء في السراء والضراء سنة إلهية للخلق بعامة، ولأصحاب الدعوات والقيم بخاصة، وهي حقيقة إن أنكرها الكافرون والجاحدون يؤمن بها من آمن بالله ورسله، وأصحاب التفكير السوي السديد.

2- أن الابتلاء يرتبط بعديد من القيم الدينية والخلقية والإنسانية كالصبر والثبات والتفاؤل والاعتماد على الله والثقة بالله ثم بالنفس والقدرة على التصرف.

3- أن الابتلاء بمفهومه التاريخي الفعلي يستغرق عهود الرسل والأنبياء، ويشكل ساحة زمنية واسعة في تاريخنا نحن المسلمين مما يجعل الوعي التاريخي البعيد لهذه الفترات، واعتصار العبر والدروس والفوائد منها ضرورة مهمة جدًا في بناء الفرد والمجتمع.

4- أن الأمة الإسلامية تعيش حاليًا - على مستوى العالم - عصر الغربة والكربة: فالأقليات الإسلامية مضطهدة في كل مكان، يقع عليها السجن، والتشريد، والقتل، والذبح، والحرق، والنهب، في الفلبين، والبوسنة والهرسك، وكوسوفو، وكشمير، وبورما، وغيرها.. وشعوب الأمة الإسلامية إن دافعت عن حقوقها، اعتبرت متعصبة مندفعة عدوانية، إرهابية، متخلفة. أما السلوك الحضاري فلا وجود له في شعوب المنطقة العربية إلا عند إسرائيل حتى لو سرقت الأرض، ونسفت الدور على أهلها، وأقامت المذابح، ونقضت كل القرارات والاتفاقات.

إنها سلسلة من المحن لا تنتهي، ومن ثم كان من اللازم أن تعي هذه الشعوب فقه المحن والابتلاءات، لا وعي تعرف فحسب، ولكن وعي سلوك وعمل كذلك؛ بحيث تكون المرجعية الإسلامية في عهد النبوة الطاهرة والخلافة والراشدة والأئمة من السلف الصالح هي المنبع والأساس.

5- والصور الشامخة الوضيئة للصابرين المحتسبين في تاريخنا ممن واجهوا المحن كجماعة المسلمين في العهد المكي أيام النبي (ﷺ)، وقدرة النبي (ﷺ) على مواجهة المشركين والمنافقين واليهود، عبقرية عمر بن الخطاب، وصبر الأمة الإسلامية في مواجهة نكبتين عاتيتين في عام الرمادة وطاعون عمواس، وصبر أحمد بن حنبل وشموخه في محنة خلق القرآن.

هذه الصور الرائعة والشرائح الوضيئة المشرقة من تاريخنا، يمكن أن تؤدي في وقتنا الحاضر مهمتين: الأولى جبر الفراغ والنقص القادح في الساحة العلمية والمناهج الدراسية، والثانية: مواجهة العلمانيين، وأصحاب المذاهب الهدامة الذين ينكرون عظمة تاريخنا، ويدعون خلو تاريخنا من النماذج الراقية.

وكل ما ذكرت يبرز أهمية هذا الموضوع والبحث فيه، ويمثل باعثًا قويًا ودافعًا صادقًا للكتابة فيه.

وقد جاء البحث في توطئة وأربعة فصول وخاتمة.

والتوطئة: مفهوم الابتلاء في اللغة والسياق القرآني:

1- عرف البحث فيها «الابتلاء» في أصل اللغة، وقدم شواهد هذا التعريف.

2- قدم وجوه الاتفاق والالتقاء، ووجوه الاختلاف والافتراق بين «**الابتلاء**» أو «**البلاء**». وألفاظ أو مصطلحات أخرى مثل: الفتنة، والاختبار، والتكليف.

3- وقدم مفهوم «**الابتلاء**» في «**السياق القرآني**» بمعانيه المختلفة، وكذلك مفهوم «الفتنة» في مجالي السراء والضراء، أو الحسنات والسيئات، وما يتبع ذلك من حكمة الشارع في هذا الابتلاء.

4- قدم ما بين الابتلاء والفتنة - بصفة خاصة - من فروق في اللغة بعامة، وفي السياق القرآني بصفة خاصة.

وجاء الفصل الأول «من هدي القرآن الكريم في الابتلاء» يقدم لنا بعض ما يعكسه الابتلاء، ويرتبط به من حقائق وقضايا ومواقف وقيم، ومنها:

1- خلق الكون والإنسان والحكمة من ذلك.

2- طبيعة الإنسان الجاحد في فهمه للابتلاء وطريقة تعامله معه.

3- الابتلاء وعلاقته بخليقتي الصبر والشكر.

4- الابتلاء والتمايز والتباين بين الناس في الصفات النفسية والعقلية والجسدية، والمراكز الاجتماعية.

5- الابتلاء في الآخرة، وكيف يكون.

6- ابتلاء المسلمين في العهد المدني، وكيف أصبح هذا الابتلاء «قاعدة حيوية»، فتوالت الآيات تهيئ المسلمين، وتعدهم لمواجهة الابتلاء، والتعامل معه، سواء أكان بالسراء أو الضراء في مجال الغنى والاكتفاء والانتصار، ومجال الفقر والاحتياج والانكسار. وقد كان في حياتهم انتصارات بدر، وخيبر، وتبوك، وانكسار واحد، ومؤامرات المنافقين واليهود.

7- استدعاء شرائح من تاريخ بني إسرائيل قديمًا بما فيها من نعم وسراء، وما فيها من نقم وضراء، ومجابهة يهود المدينة بها حتى يتخلوا عن ضلالهم وفسادهم طمعًا في عفو الله حتى لا ينزل بهم ما نزل بأجدادهم من نقم وعذاب.

ولكن يهود المدينة ظلوا على ضلالهم، وفسادهم، وعنادهم، حتى لاقوا ما يستحقون على يد رسول الله (ﷺ)، إلى أن تطهرت منهم الجزيرة العربية تمامًا أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

وقد كانت الآيات القرآنية هي المرتكز والمنطق في إبراز ما قدمنا من قيم، ومواقف، وحقائق تاريخية، وما وراءها، ودروس، وفوائد.

ثم كان الفصل الثاني بعنوان «من هدي السنة في الابتلاء» مبينًا بعض خطوط المنهج النبوي في عرض صور الابتلاء، وحالاته، وتوجيهاته، وهي تمثل بعض خطوط المنهج النبوي في الدعوة إلى الله:

- فوظف الأسلوب القصصي في عرض صورتي الابتلاء بالضراء وبقصة الغلام المؤمن، والملك الكافر»، والابتلاء بالسراء في «حديث الأبرص والأعمى والأقرع».
- وعرض الابتلاء إجابة على سؤال أو أسئلة كان المسلمون يهرعون إليه ويفزعون بها.
- ووظف أسلوب المفارقة، أو الجمع بين الصورتين المتناقضتين حتى يتضح التباين، والملامح الفارقة بينهما، فبضدها تتميز الأشياء، كجمعه (ﷺ) بين صورتي المؤمن والمنافق في تلقي المحن والابتلاءات، والتعامل معها.

والفصل الثالث «من صور الابتلاء في الأمم الغابرة كما عرضها القرآن الكريم».

وهذه الصور كثيرة متعددة في القرآن؛ ولذا اكتفينا بانتقاء بعضها، وكان الانتقاء على أساس تمثيل «الشخصية»، أو «الواقعة التاريخية» نوعيات مختلفة من الابتلاء:

ففي الابتلاء بالسراء:

أ - قدم البحث صورة للابتلاء بالغنى قاد إلى الجحود، تمثلت في أصحاب الجنة.

ب - وقدم صورة للابتلاء بالغنى الذي قاد إلى الكفر والبواح بالله سبحانه وتعالى، وتمثلت في صاحب الجنتين.

ج - وقدم صورة للابتلاء بالغني والعلم، وكانت النتيجة الكفر والجحود، وتمثلت في قارون، وقد قاده كفره، وجحوده إلى أن خسف به، وبداره الأرض.

وفي الابتلاء بالضراء: قدم البحث الصور الآتية:

1- الابتلاء في الولد الوحيد: (إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام).

2- الابتلاء بالمرض: أيوب عليه السلام.

3- الابتلاء بالمرأة والسجن: يوسف عليه السلام.

4- الابتلاء في الدين: أصحاب الأخدود.

وفي الابتلاء بالآيات: ثمود وناقة صالح.

وكان من ملامح المنهج في عرض هذه الصور:

1- الاعتماد اعتمادًا كليًا دائمًا - أو غالبًا - على المعروض القرآني من هذه الصور التاريخية.

2- استيفاء جوانب الصورة بما أورده المفسرون بشأنها.

3- عرض ما تخرج به من هذه القصص من حكم وعظات، وقيم، ودروس نافعة في الدنيا والآخرة.

لقد ساق الله (سبحانه وتعالى) هذه الصور التاريخية، والحكمة منها أكبر بكثير من إكساب الناس معارف وقائع التاريخ؛ لأن هذه الوقائع يمكن أن تنقل على ألسنة البشر جيلًا بعد جيل، إنما الحكمة الأساسية من وراء هذا القص هي «الاعتبار والامتثال»، وهذا ما حققه النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأخذ الصحابة والسلف الصالح أنفسهم به؛ لذا جاء **الفصل الرابع** يؤكد هذا الحكم، فقدمت فيه بعضًا «**من صور الابتلاء في الأمة الإسلامية**» وهي أيضًا صور مختلفة للابتلاء، وإن دخلت كلها في نطاق «**الابتلاء بالضراء**».

والصورة الأولى: ابتلاء النبي (صلى الله عليه وسلم) وأهله بحديث الإفك.

والصورة الثانية: ابتلاء الأمة بالجوع، والطاعون.

والصورة الثالثة: ابتلاء العلماء، كما حدث للإمام أحمد بن حنبل (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

وأيضًا وقفنا أمام هذه الصورة ونستخلص منها الدروس، والعظات، والتوجيهات التي أثرت وتؤثر في حياة المسلمين، وتشكيل الشخصية المسلمة.

ثم كانت الخاتمة تركيزًا، وتأكيدًا لفوائد الابتلاء ودروسه على سبيل الإيجاز، وبيان كيفية الإفادة منها في حياتنا الحاضرة في شتى المجالات، وخصوصًا السلوكية والتربوية.

وأخيرًا تقديم رؤية لما يمكن أن يكون حلًّا، أو إنقاذًا للشعوب المسلمة والأقليات الإسلامية في المحن التي تستبد بها، وتكاد تخنقها خنقًا.

وما توفيقي إلا بالله، والحمد لله رب العالمين.







تـــــوطئـــــة

مفهوم الابتلاء

في اللغة والسياق القرآني

الابتلاء في أصل اللغة: هو الاختبار، والامتحان. تقول: بلوت الرجل بلوًا وبلاء، وابتليته اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا إذا جربه واختبره.

وابتلاه الله امتحنه، والاسم البلوى والبِلْوَة والبِلْيَة والبليّة والبلاء، وبليَ بالشيء بلاء وابتلى، والبلاء يكون في الخير والشر.. ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ (الأنبياء: 35).

وقال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو[1].

والبلاء الغم كأنه يبلي الجسم والتكليف بلاء؛ لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار.

والبلاء يكون منحة، ويكون محنة[2].

ويقال: أبلي في الحرب بلاء حسنًا، إذا أظهر بأسه، حتى بلاه الناس وخبروه وكان له يوم كذا بلاء[3].

فالمعنى اللغوي المباشر للابتلاء هو الامتحان والاختبار، وبالنظر إلى موقف المبتلى ونتيجة هذا الابتلاء أو البلاء منحة للعبد إذا صبر وشكر، وإلا فهو محنة.

والفتنة تأتي بمعنى الابتلاء والاختبار تقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، فهو مفتون وفتين[4].

وقوله (ﷻ): ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة: 126).

قيل معناه يختبرون بالدعاء إلى الجهاد، وقيل يفتنون بإنزال العذاب والمكروه[5].

---

(1) ابن منظور لسان العرب 355/1.

(2) الفيروزآبادي: القاموس المحيط 1632 (مادة بلي).

(3) الزمخشري: أساس البلاغة 30 (مادة بلو).

(4) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة 472/4.

(5) لسان العرب: 5/ 3346.

وللفتنة معانٍ كثيرة أخرى منها: الضلال والإثم والجنون، والكفر، والفضيحة، والعذاب، والقتل، والقتال، والإحراق بالنار، والإزالة، والصرف عن الشيء[1].

وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يُستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً[2].

وباستقراء السياق القرآني نجد أن مادة البلاء والابتلاء قد استخدمت - في الأغلب الأعم - بمعنى الاختبار والامتحان بالنعمة أو المحنة، أو بهما معًا، تستوي في ذلك الآيات المكية، والآيات المدنية:

فمن الابتلاء بالنعم قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ (الفجر: 15).

ومن الابتلاء بالنقم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ (الفجر: 16).

وقد يجمع الابتلاء بالسراء والضراء في آية واحدة كقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: 168).

واختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر»[3].

ويأتي البلاء بمعنى النعمة على سبيل القطع، فلا يحتمل غير هذا المعنى، كما نرى في قوله تعالى عن غزوة بدر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ

(1) انظر لسان العرب 3344/5

(2) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن 374.

(3) الراغب: المفردات 71.

ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: 17).

أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته[1].

وقد يحتمل (**البلاء**) أكثر من وجه، كما ترى في قوله تعالى عن بني إسرائيل ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ (الدخان: 33).

فقد ذكر القرطبي (للبلاء) في هذه الآية أربعة أوجه هي:

1- نعمة ظاهرة، كقوله تعالى ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ (الأنفال: 17).

2- عذاب شديد.

3- اختبار يتميز به المؤمن من الكافر.

4- ابتلاؤهم بالرخاء والشدة[2].

وقد أشارت الآيات السابقة إلى بعض هذه الآيات التي آتاها الله بني إسرائيل وهي:

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ . مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ . وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الدخان: 30-32).

وقد استعملت مادة (البلاء) في القرآن الكريم سبعًا وثلاثين مرة، ما بين فعل، واسم ومصدر على النحو التالي:

ست عشرة مرة في آيات مكية، وإحدى وعشرين مرة في آيات مدنية، منها آيتان مدنيتان في سورة الأعراف وهي مكية، وهما الآيتان 163، 168.

- ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعًا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ (الأعراف:: 163).

---

(1) ابن كثير تفسير القرآن العظيم: 347/3.

(2) القرطبي: الجامع لإحكام القرآن 5963/7.

واستخدمت «مادة الفتنة» في القرآن الكريم 58 مرة، منها 27 مرة في آيات مكية، و 31 مرة في آيات مدنية، ومن هذه الآيات المدنية 6 آيات وضعت في سورة مكية.

هي على الترتيب النزولي:

- ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: 131).
- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (الإسراء: 73).
- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 23).
- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(العنكبوت: 2).
- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت: 3).
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (العنبكوت: 10).

وتلتقي الفتنة والابتلاء أو البلاء في المعنى الرئيسي الذي أشرت إليه، وهو الامتحان والاختبار، وهذا الاستعمال وارد بكثرة في القرآن الكريم، كما نرى في قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: 35).

وقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الأنبياء: 111).

وقوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: 28).

وللفتنة من المعاني والمدلولات أكثر مما للبلاء أو الابتلاء، فمن معاني الفتنة - كما ذكرنا من قبل - الضلال، والإثم، والجنون، والكفر، والفضيحة، والعذاب، والقتل، والقتال، والإحراق بالنار، والإزالة، والصرف عن الشيء)[1].

(1) لسان العرب 3346/5

وقد استخدمت الفتنة بكل هذه المعاني أو أغلبها في القرآن الكريم.

فاستعملت بمعنى الجنون في قوله تعالى ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ (القلم: 5، 6). فالمفتون هنا بمعنى المجنون، أو الجنون الذي رمى الكفار به رسول الله (ﷺ) وقد أقسم الله (سبحانه وتعالى) في مطلع السورة على نفي الجنون عن محمد (ﷺ)، وقد أنعم الله عليه بنعمة النبوة.

وتأتي الفتنة بمعنى الضلال أو الإضلال كما نرى في قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: 31).

لقد ذكر الله (سبحانه وتعالى) أن خزنة النار ملائكة، وأن عددهم تسعة عشر، فلما سمع المشركون ذلك سخروا منه، واستهانوا به، زادوا ضلالاً على ضلال، ويروى أن أبا جهل قال يومًا: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[1].

وقريب من هذا استخدام الفتنة بمعنى الشرك والكفر بالله، كما نرى في الآيات الثلاثة الآتية:

- ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: 191).
- ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: 193).
- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: 217).

وتأتي الفتنة بمعنى التعذيب، والإحراق، كقوله تعالى في شأن أصحاب الأخدود:

(1) السيوطي: لباب النقول 224 – وهبة الزحيلي: التفسير الوجيز 577.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10).
- وفي سياق الحديث عن الكفار يقول تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (الذاريات: 12، 13).

فالمشركون يسألون رسول الله (ﷺ) سؤال استهزاء وتكذيب: متى يوم القيامة؟ فجاء الجواب: يوم هم يحرقون، ويعذبون، بعرضهم على جهنم(1).

- ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ...﴾ (العنكبوت: 10).
- فبعض الناس الذين يؤذون في شأن الله ولأجله، كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات، من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله، والعمل بما أمر به ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى، ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي جزع من أذاهم، فلم يصبر عليه وجعله في الشدة والعظمة كعذاب الله، فأطاع الناس كما يطيع الله، وقيل هو المنافق إذا أوذي في الله، رجع عن الدين فكفر(2).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال: 25).

والمخاطب هنا هم المؤمنون، والفتنة عذاب، أو بلاء عام، كالقحط، أو المرض، أو تسلط عدو، وهذه الفتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح، والطالح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم(3).

ومن معاني الفتنة لغة: الإزالة والصرف عن الشيء، وقد ورد هذا الاستعمال في آيتين مدنيتين، وإن جاءت الأولى في سورة مكية، والآيتان موجهتان لرسول الله (ﷺ)، وهما:

---

(1) التفسير الوجيز 522.
(2) الشوكاني: فتح القدير 240/4.
(3) فتح القدير: 373/2.

- ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (الإسراء: 73).
- ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ .... ﴾ (المائدة: 49).

وعن مصدر الفتنة يقول الراغب الأصفهاني:

والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد، كالبلية، والمصيبة، والقتل، والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك نحو قوله ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[1].

واستقراء السياق القرآني يقودنا إلى الفروق الآتية بين الفتنة، والابتلاء أو البلاء:

1 - أن الفتنة أعم من الابتلاء؛ حيث تأتي الفتنة على معان كثيرة، والابتلاء واحد من هذه المعاني.

2 - والفتنة - من ناحية الكيف - أشد من الابتلاء، ويتضح ذلك من خلال المثالين التاليين:

- يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: 124).

ويقول تعالى في شأن موسى (عليه السلام) ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ (طه: 40).

والمراد بالابتلاء في الآية الأولى اختباره بالتكاليف التي كلف الله إبراهيم (عليه السلام) بأدائها، فظهر عزمه، وامتثاله لتلك التكاليف؛ حيث أتى بها كاملة، فجوزي عليها أعظم الجزاء.

والمراد بالفتنة في الآية الثانية: تلك المحن والابتلاءات الشديدة التي مر بها موسى

---

(1) المفردات في غريب القرآن، 374.

(عليه السلام)، ومنها قتله القبطي والابتلاء بالقتل أشد - ولا شك - من الابتلاء بالقيام بالتكاليف الربانية.

3- تأتي أفعال الابتلاء أحيانًا مسندة إلى الله - تعالى - بالاسم الظاهر مثل﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ...﴾ (البقرة: 124)، ومثل ﴿.. إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ (النحل: 92)، وأحيانًا يأتي الإسناد في أفعال الابتلاء إلى الضمير مثل ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ (آل عمران: 152)، ومثل ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ (الأنفال: 17).

أما الفتنة فإننا لا نجد أن الأفعال منها تأتي مسندة إلى الاسم الظاهر من أسماء الله تعالى مطلقًا، ولعل السبب في ذلك كون الفتنة تأتي على معان غير حسنة، مثل ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ (النساء: 101).

فتنزيه الله(سبحانه وتعالى) يقضي عدم إسنادها إلى اسمه الظاهر[1].

4 - وتشترك مادتا «البلاء» و«الفتنة» في ارتباط الاستعمال بوقائع ومواقف تاريخية قبل بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأثناء حياته، ولكن ذلك أظهر وأكثر في مجال استخدام ماد الفتنة وأفعالها.

وقد يستأنس في تأييد ذلك أن الفعل الماضي من مادة الفتنة (فتنا. فتنوا. فتنم) يزداد عددًا على الأفعال الماضية من مادة (البلاء)، بينما تبلغ الأفعال المضارعة ثلاثة أمثال الأفعال الماضية من مادة (البلاء)، وضعف الأفعال الماضية من مادة (الفتنة).

ويفرق أبو هلال العسكري بين التكليف، والابتلاء: فالتكليف إلزام ما يشق إرادة الإنسانية عليه، وأصله في العربية اللزوم، ومن ثم قيل، كلف بفلانة يكلف بها كلفًا إذا لزم حبها، ومنها قيل: الكلف في الوجه للزومه إياه، والمتكلف للشيء الملزم به على مشقة، وهو الذي يلتزم ما لا يلزمه أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [2]. ومثله المكلف.

---

(1) انظر تفصيل هذين الفارقتين في كتاب السحيباني (الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن 24-28)

(2) وتمام الآية: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: 86). أي قل للكفار ما أطالبكم

أما الابتلاء فهو استخراج ما عند المبتلى، وتعرف حاله في الطاعة، والمعصية بتحميله المشقة، وليس هو من التكليف في شيء[1].

والفرق بين **الابتلاء والاختبار** أن الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك، وبفعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال: اختبره بالإنعام عليه، ولا تقول ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنعمة، كما قد يقال: اختبره بالإنعام عليه، ولا تقول ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنعمة، كما قد يقال إنه مختبر بها[2].

والفرق بين **الفتنة والاختبار** أن الفتنة أشد الاختبار وأبلغه، وأصله عرض الذهب على النار لتبين صلاحه من فساده، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (الذاريات: 13) يكون في الخير والشر ألا تسمع قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: 15)؟ وقال تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [3] فجعل النعمة فتنة؛ لأنه قصد بها المبالغة في اختبار المنعم عليه بها، كالذهب إذا أريد المبالغة في تعرف حاله أدخل النار[4].

وقد جانب التوفيق أبا هلال العسكري في بعض ما ذكر فهو يرى أن الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك، وبفعل المحبوب فيقال اختبر بالنعمة، ولا يقال: ابتلي بها.

وما ذهب إليه أبو هلال ينقضه الاستعمال اللغوي، والاستعمال القرآني، وقد جاء فيه البلاء يكون بالخير، والشر، وبالنعمة، والنقمة، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: 168).

عليّ تبليغ المنزل على من القرآن وغيره من أجر تعطونيه. ولست من المتقولين القرآن من تلقاء نفسي أو المتصنعين المدعين النبوة والقول على الله ما لا علم لي به (انظر تفسير الجلالين 605).

(1) الفروق اللغوية (178).

(2) السابق: الصفحة نفسها.

(3) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا . لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (الجن: 16، 17).

(4) الفروق اللغوية (179).

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: 35).

وفي قوله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (الأعراف: 141) فسر البلاء بأنه النعمة أو المحنة[1]. وبذلك يلتقي الاستعمال اللغوي والاستعمال القرآني.

ومن البديهات أن جميع التكاليف الشرعية تعد من قبيل الابتلاء، ومن ثم نرى أن التوفيق قد جانب أبا هلال في قوله: إن الابتلاء ليس من التكليف في شيء.

ويرتبط الابتلاء في المعروض القرآني بكثير من القضايا، والحقائق، والمواقف، والقيم.

ووراء كل معروض من هذه المعروضات كثير من الدروس والعبر والتوجيهات النافعة للأفراد والأمم، والجماعات في الدنيا، والآخرة، كما سترى في الصفحات الآتية، إن شاء الله تعالى.



(1) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل 111/2.



من هدي القرآن الكريم

في الابتلاء

(مواقف وحقائق ودروس وعبر)

أولاً: الابتلاء وخلق الإنسان

في الحديث عن خلق الإنسان يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: 2).

"فخلق الإنسان - أي الآدمي - وهو يملك آليات التمييز بين الخطأ والصواب، والخير، والشر، ليسأل عن أعماله يوم القيامة، بعد مشاهدة الأدلة واستماع الآيات»[1]. ويؤكد الله (سبحانه وتعالى) هذا المعنى، ويفصله بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: 3)؛ أي بينا له وعرفناه طريق الهدى، والضلال والخير والشر كما في قوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: 10)[2].

ويبين الله (سبحانه وتعالى) أن الابتلاء مرتبط بتكوين السموات والأرض، أصيل في نظام الكون، وسنن الوجود، فيقول جل شأنه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. ﴾ (هود: 7).

لقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام.. خلقها في هذا الأمد لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشري، وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السموات، وهو سبحانه مسيطر على الكون كله «ليبلوكم أيكم أحسن عملًا» والسياق يظهر كأن خلق السموات والأرض في ستة أيام - مع سيطرة الله، سبحانه على مقاليده - كان من أجل ابتلاء الإنسان ليعظم هذا الابتلاء، ويشعر الناس بأهميتهم وبجدية ابتلائهم[3].

---

(1) التفسير الوجيز 579.

(2) فتح القدير 430/5.

(3) في ظلال القرآن، 858/4.

ونرى الارتباط نفسه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف: 7). الزينة كل ما على وجه، وكل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه، وصنعه، وإحكامه.. وقد جعل الله ذلك امتحانًا واختبارًا لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر[1].

ومن مظاهر ملك الله المطلق، وقدرته التي لا يحدها حد، إنه هو: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك: 2).

والموت يشمل الموت السابق على الحياة، والموت اللاحق لها، والحياة تشمل الحياة الأولى، والحياة الآخرة، وكلها من خلق الله، كما تقرر هذه الآية التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني، وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء، فليست المسألة مصادفة بل تدبير، وليست كذلك جزافًا بلا غاية، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبدًا يقظًا حذرًا متلفتًا واعيًا للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر، ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح، ثم يجيء التعقيب «وهو العزيز الغفور» ليكسب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه، فالله عزيز غالب، ولكنه غفور مسامح، فإذا استيقظ القلب، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار، وحذر وتوقى، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته، وأن يقر عندها ويستريح[2].

ويذكر الله (سبحانه وتعالى) عباده بالموت، والموت هو الحقيقة التي لا يستطيع إنسان أن ينكرها مؤمنًا كان أو كافرًا، ولا يستطيع حي أن يفلت منه: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء: 78).

(1) القرطبي: 3971/5.

(2) في ظلال القرآن 3632/6.

وهو الحقيقة التي تقررها وتؤكدها الآية الآتية: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: 35). أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم، فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر[1].

والابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر. إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير؛ فالابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب، وينميها، ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة؛ لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، وذلك شأن البشر إلا من عصمه الله.

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان[2].



(1) الكشاف 572/2.

(2) في ظلال القرآن 2378/4.

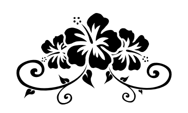
ثانيًا: الابتــلاء والجحــود

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ (الفجر: 15، 16). إنها طبيعة الإنسان الكافر الذي يبطر عند الرخاء ويقنط عند الضراء: فإذا ما اختبره، وامتحنه ربه بالنعمة، وأكرمه بالمال فرح بذلك، ولا يحمد الله، أما إذا ما امتحنه بالفقر واختبره، وضيق عليه رزقه، على مقدار البُلْغة، فيقول ربي أهانن»؛ أي أولاني هوانا. وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا، حمده وشكره[1].

إنها طبيعة الكفران، والجحود، والتكبر التي عبَّرت عنها آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: 49).

فمثل هذا الجاحد يرى أن مثل هذه النعمة التي جاءته بعد كرب وضراء، إنما أعطيها على خبرة، ومعرفة، وذكاء، وعلم منه بوجود الكسب[2]. إنه منطق قارون الذي قال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...﴾ (القصص: 78).

ويقدم القرآن مثالاً عمليًّا مشهودًا لهؤلاء الجاحدين في هذه الصورة الرائعة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾ (يونس: 22 – 23).



(1) القرطبي 8 / 7141.
(2) التفسير الوجيز 465.

ثالثًا: الابتلاء بين الصبر والشكر

من مزايا الابتلاء ارتباطه عضويًا بفضيلتين نفسيتين لا يخلو منهما معجم المسلم السوي وهما: الصبر والشكر، وتبدو العلاقة بين الابتلاء وبينهما علاقة سببية؛ فالابتلاء - غالبًا - يؤكد هاتين الفضيلتين، فالصبر وليد الضراء، والشكر وليد السراء، وقد يرقى المسلم في الضراء إلى مقام الصبر والشكر معًا. كما نرى فيما نقله خلف بن إسماعيل الخزاعي قال: » سمعت رجلًا من الزمْنَى (مرضى الجذام) يقول: إن كنتَ إنما ابتليتني لتعرف صبري، فأفرغ على صبرًا يبلغني رضاك عني، وإن كنت إنما ابتليتني لتثيبني وتأجرني، وتجعل بلاءك لي سببًا إلى رحمتك بي، فمَنْ من عبادك أعظم نعمة ومنّة مننت بها على، إذ رأيتني لاختبارك لها أهلا، فلك الحمد على كل حال، فأنت أهل كل خير، وولي كل نعمة«[1].

والصبر - كما يقول ابن القيم - آخيَّة[2] المؤمن الذي يجول، ثم يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبة ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة.

فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[3].

وقد أبرز القرآن الكريم قيمة الصبر، وآثاره في الدنيا والآخرة ومكانة الصابرين وجزاءهم. قال تعالى ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: 46). فظفر الصابرون

---

(1) ابن أبي الدنيا: الصبر والثواب عليه 52.

(2) الآخية مثل حلقة تشد إليها الدابة. (القاموس المحيط 1624).

(3) ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين 21.

بهذه المعية، بخيري الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة.

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: 24).

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكدًا باليمين ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل: 126).

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: 120).

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه وصّلاه إلى محل العز والتمكين، فقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف: 90).

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل عنه ذلك المؤمنون، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: 200).

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين؛ فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: 146).

وقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 155).

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: 45).

وأخبر أن الرغبة في ثوابه، والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص: 80).

وأخبر سبحانه خبرًا مؤكدًا بالقسم: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: 2-3).

وأمر رسوله (ﷺ) بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ (الطور: 48). وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ (النحل: 127 - 128).

فالصبر هو ملاذ المبتلى، ومن أشهر الصابرين المحتسبين نبي الله أيوب عليه السلام فكان صبره على ما ابتلي به من المرض الطويل مضرب المثل في كل العهود.

ونشير هنا إلى ما جاء على لسان نبي الله يعقوب في محنتيه اللتين فرجهما الله بعد ذلك وهما فقد ابنه الحبيب يوسف.. وكان رده على إخوته حين أتوا على قميصه بدم كذب مدعين أنه أكله الذئب ﴿.. بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: 18)[1].

والمحنة الثانية: حين عاد أبناؤه إلى أبيهم بدون ابنه بنيامين بدعوى أنه سرق وحجز في مصر: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (يوسف: 83).

وفي المحنتين لم يجد يعقوب ما يتحلى به إلا الصبر، وفي الحالين يصف الصبر بأنه صبر جميل، والصبر الذي لا جزع فيه[2]، وقال بعضهم: ثلاث من الصبر، ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك[3].

ونلاحظ أن يعقوب (عليه السلام) يربط (الصبر الجميل) في الآية الأولى (بالله المستعان)، ويربطه في الآية الثانية (بالله المرجو المأمول) وقد يكون هذا سرًّا من أسرار وصف الصبر بالجمال.

---

(1) سولت: زينت. تصفون: تكذبون.

(2) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 216/12.

(3) السابق 217، 50/13.

وقال بعضهم: «ذكر الله (عَزَّ وَجَلَّ) في كتابه: الصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل، فالصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه»[1].

ولعل من أوفى ما ذكر في هذا المقام ما قاله خلف بن إسماعيل الخزاعي: إن من شروط الصبر: أن تعرف كيف تصبر؟ ولمن تصبر؟ وما تريد بصبرك؟ وتحتسب في ذلك وتحسن النية فيه؛ لعلك أن يخلص لك صبرك، وإلا فإنما أنت بمنزلة البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك، ثم هدأ فهدأت، فلا هي عقلت ما نزل بها فاحتسبت وصبرت ولا هي عرفت النعمة حين هدأ ما بها فحمدت الله على ذلك وشكرت[2].

وقد عرفنا أن الابتلاء يكون كذلك بالنعماء والسراء، وهذا يستوجب شكر الله، فهو المنعم المانح، ولأهمية هذه السمة قرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (النساء: 147).

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأنعام: 53).

وقسم الناس إلى شكور، وكفور، فقال في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: 3)، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: 53).

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأغلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن

(1) ابن أبي الدنيا: الصبر، هامش 83.

(2) السابق، 53.

شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف: 17)[1].

وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإن شكروه، كان قادرًا على أن يزيدهم، وإن كفروه كان قادرًا على أن يبعث نعمته عليهم عذابًا[2].

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك من أن أبدل نعمتك كفرًا، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثني عليها[3].



(1) وانظر عدة الصابرين 150 - 152.

(2) عدة الصابرين: 157

(3) السابق: 159

رابعًا: الابتلاء والتمايز بين الناس

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (الأنعام: 165).

يقول الفخر الرازي في تفسيره: اعلم أن في قوله: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ وجوهًا: أحدها جعلهم خلائف الأرض؛ لأن محمدًا (ﷺ) خاتم النبيين، فخلفت أمته سائر الأمم.

وثانيها: جعلهم يخلف بعضهم بعضًا.

وثالثها: أنهم خلفاء الله في أرضه، يملكونها ويتصرفون فيها.

ثم قال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ..﴾ في الشرف، والعقل، والمال، والجاه، والرزق.

وإظهار التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل؛ فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان، وهو المراد من قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[4]، فابتلي الموسر بالغنى وطلب منه الشكر، وابتلى المعسر بالفقر، وطلب منه الصبر[5].

وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿.. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: 20).

أي أن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر؛ فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني، ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغنى عليه ألا يحسدوه ولا

(4) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير.

(5) القرطبي 2594/3.

يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق.. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام العدل؛ فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر[1].

وعلى كل منهما أن يعتبر بالوقائع والأحوال؛ فالحياة لا تدوم على توقف، ولكن الأمور والأحوال في حركة وتغير لا ينكره أحد فالصحيح يمرض، والغني يفتقر، والقوي يضعف، والعزيز يذل، والنعمة في الدنيا إلى زوال.



(1) القرطبي 4734/6.

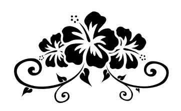
خامسًا: الابتــلاء والآخــرة

المعروف - وهو المطرد في السياق القرآني - أن الابتلاء - بمعنى الاختبار والامتحان - لا يكون إلا في الدنيا؛ لأنه مرتبط بالأعمال والتكاليف، وعليها يكون الثواب والعقاب، ولكن جاءت مادة الابتلاء في الآخرة، وذلك في آيتين، هما بترتيب النزول:

- ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ (الطارق: 9).
- ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (يونس: 30).

فالآية الأولى جاءت بعد بيان قدرة الله (سبحانه وتعالى) على الخلق.. وخصوصًا خلق الإنسان من ماء دافق، يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فيختلط الماءان ويكون الإنسان الذي يعيش حياته ثم يموت، ويكون بعثه دالاً على قدرة الله.. فهو قادر على إرجاعه حيًّا كما كان وأعظم مما كان، وذلك يوم القيامة يوم تبلى السرائر، أي تختبر وتمتحن لإظهار ما كان مستورًا مخبوءًا فيها من كفر وإيمان، وخير، وشر[1].

وتأتي الآية الثانية (وهي الثلاثون من سورة يونس)، وخلاصة معناها: أنه في يوم الحشر - في ذلك الموقف الرهيب - تختبر كل نفس ما قدمت في دنياها وتعرفه: هل هو ضار بها، أو نافع لها؟ ويومها يجد المخلوقون أنفسهم أمام مولاهم، ومالك أمرهم، ومعبودهم الحق الذي طالما كفروا به، وتنكروا له، وجحدوا آياته ورسله، وضل: أي غاب عنهم ما كانوا يفترونه من الأكاذيب والترهات والأباطيل من تلك الأصنام التي سموها آلهة وعبدوها، وندموا يوم لا ينفع الندم، وجزاهم بما لم يكونوا يحتسبون[2].



(1) أيسر التفاسير 554/5.

(٢) السابق ٢/ ٢٦٨.

سادسًا: ابتلاء المسلمين في العهد المدني

لما اشتد إيذاء الكفار للنبي (ﷺ) وللمسلمين، مهد النبي (ﷺ) سبيل الهجرة إلى المدينة ببيعتي العقبة الأولى والثانية. والهجرة هذه المرة تختلف عن هجرة المسلمين إلى الحبشة من عدة وجوه؛ إذ كانت الهجرة إلى الحبشة هدفها الأساسي البعد عن مكة، أرض الظلم والاضطهاد والتعذيب والجبرية، بحثًا عن الأمان والسلامة الذاتية.

أما هجرة النبي (ﷺ) إلى المدينة، فلم تكن فرارًا من أجل حماية النفس - وإن كان الحفاظ على الحياة وسلامة النفس مما يدعو إليه الدين - ولكن الهجرة كانت لهدف أساسي هو «نشر الدعوة وتوسيع دائرتها»، لقد أصبحت تربة مكة قاحلة شمطاء ترفض البذر، ولا تقبل الماء، وتحاول أن تخنق كل عود أخضر، وتمتص كل نبات جديد، نعم لابد من تربة جديدة، ومعاناة جديدة، وعمل متواصل، حتى تؤتي الدعوة ثمارها.

وكانت الهجرة إلى ما «هو أصلح»، ولكنها لم تكن إلى ما «هو أسهل» وآثر النبي (ﷺ) أن يتحمل مزيدًا من الأثقال والأعباء في سبيل الوصول إلى نتائج مثمرة، ونكتشف أن محمدًا (ﷺ) كان في مكة يواجه عدوًا واحدًا يتمثل في الكفار، ولكنه في المدينة أصبح يواجه أعداء متعددين، وجبهات متعددة: فهناك المنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي عاش - بعد وصول النبي (ﷺ) - يغلي قلبه بالحقد، وتفور نفسه بالنقمة؛ لأن ذلك الوافد الجديد سحب «الأرض من تحت رجليه»، وحرمه «تاج الملك»، وكان قاب قوسين أو أدنى.

وهناك اليهود: خيبر، وبنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، قبائل غنية منيعة تبحث عن «أمجاد مدفونة»، وكانت تطمع أن يمالئها النبي الجديد، ولكن خاب فألهم.

وهناك الفرس والروم، وقد بدأت عيونهم تتجه نحو المدينة (يثرب)، وترصد خطوات هذا الوافد الجديد الذي غيّر موازين القوى، وموازين العقيدة في المنطقة.

أما قريش فمازالت على عدائها، بل إن حقدها ازداد تضرمًا، وغضبها ازداد تسعرًا؛ فقد عز عليها أن يفلت من قبضتها محمد ومن معه من المستضعفين.

نعم خرج محمد (ﷺ) إلى «الأصلح والقابل»، وإن كان هو «الأعتى والأصعب»، وهذا هو الفيصل الحاسم بين «الهجرة» بمفهومها التشريعي الإنساني، والفرار بمفهومه المفزوع المهزوم[1].

ومن ثم كان لابد من إعداد النفوس لمجابهة هذه الجبهات العاتية التي تريد بالإسلام والمسلمين الشر والإضرار، بل المحق والاستئصال. وابتداء لابد أن يكون المسلم على قناعة واقتناع بأن الابتلاء هو أساس الدعوات؛ «فالإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل، وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء، وإنها لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله وتحقيق كلمته في عالم الحياة؛ فهي أمانة وكريمة، وهي أمانة ثقيلة، وهي من أمر الله، يضطلع بها الناس، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء»[2].

فلا عجب أن يكون من أوائل الآيات المدنية التي تعرض هذه الحقيقة ما جاء في سورة العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت: 2، 3)[3].

---

(1) انظر جابر قميحة «أدب الرسائل في صدر الإسلام» 43 - 44.

(2) في ظلال القرآن 2720/5.

(3) سورة العنكبوت مكية كلها، وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة، وفي القول الآخر لهما - وهو قول يحيى بن سلام - إنها مكية إلا عشر آيات من أولها، إنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة، وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) نزلت بين مكة والمدينة.

(القرطبي 5039/6. وانظر للسيوطي: لباب النقول 166).

ولا نقف عند الخلاف في مكية هذه الآيات أو مدنيتها؛ فالعنكبوت - على افتراض مكية آياتها كلها أو أغلبها - لم ينزل بعدها في مكة إلا سورة «المطففين»، آخر السور المكية نزولًا؛ فالعنكبوت بهذا الاعتبار قريبة العهد زمنيًّا من القرآن المدني الذي كانت أول سورة منه نزولًا هي سورة البقرة.

ويذكر المفسرون أسماء الأشخاص الذين نزلت فيهم الآيات الأولى من سورة البقرة، ومناسبة هذا النزول(1).

ولكن اللفظ عام؛ لأن اسم الجنس إذا دخلت عليه (أل) أفادت استغراق جميع أفراده، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهو ما ينبهنا إليه ابن عطية من أن هذه الآيات «وإن نزلت بهذا السبب، أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد (ﷺ) موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر، ونكاية العدو، وغير ذلك»(2).

فالآية تنص على أصل ثابت من أصول الدعوات، وهو ابتلاء الله عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»(3).

وقد نزلت الآيات تترى تؤكد هذا المعنى، وترسخ هذه القاعدة لقوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: 214).

---

(1) قال ابن عباس وآخرون: يريد بالناس قومًا من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم، ويعذبونهم على الإسلام كسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر، وياسر أبوه، وسمية أمه، وعدة من بني مخزوم وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين (القرطبي 5039/6).

(2) القرطبي 5040/6.

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 168/6.

وقوله تعالى:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: 142).

وقوله تعالى:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (التوبة: 16).

وحتى يقابل المسلمون الابتلاء بالصبر، والمحن بالثبات، يذكر الله سبحانه وتعالى أن الابتلاء سنة ماضية في الدعوات، لا تتخلف، وليست خاصة بالمسلمين، كابتلاء إبراهيم بالنار، وأيوب بالمرض، وما فعله أصحاب الأخدود بالمؤمنين، والبلاء أو الفتنة هي التي تميز الصادقين من الكاذبين، ومن يعبد الله عن يقين، ممن يعبد الله على حرف.

«والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ، وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة، فيشتد عودها، ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية، مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختيار»[1].

وحتى يهيَّأ المسلمون لتلقي ضربات المحنة، ومكائد أعداء الحق والدين، وما ينزل بهم من مكاره وضراء في المجتمع الجديد، يوجه الله (سبحانه وتعالى) الخطاب إليهم، عارضًا ما سيقع عليهم من أثقال البلاء، وموجهًا أنظارهم لما يجب أن يكونوا عليه لمواجهة ما يحل بهم.

وإذا كانت آيات مطلع العنكبوت مختلف على مكان نزولها، فإن سورة البقرة مدنية ربما بلا خلاف، كما أنها أول سورة نزلت في المدينة، وفيها يوجه الله (سبحانه وتعالى)،

(1) في ظلال القرآن 2721/5.

فيقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: 155).

فهنا قسم من الله (سبحانه وتعالى) لعباده المؤمنين على أن يبتليهم بشيء من الخوف بوساطة أعدائه وأعدائهم وهم الكفار عندما يشنون الحروب عليهم، وبالجوع لحصار العدو، ولغيره من الأسباب، وبنقص الأموال كموت الماشية للحرب والقحط، وبالأنفس كموت الرجال وبفساد الثمار بالجوائح، كل ذلك لإظهار من يصبر فيحرم ولاية الله وأجره، ثم أمر رسوله بأن يبشر الصابرين(1).

ويظهر فضل الله تعالى ورحمته إذ جعل الابتلاء «بشيء»، أي بقليل من ذلك، فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة، وكذا ما يصيب به معانديهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة(2).

إنها - كما يقول سيد قطب - التعبئة الحقيقية للصف الإسلامي، التعبئة في مواجهة المشقة، والجهد، والاستشهاد، والقتل، والجوع، والخوف، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات، التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف(3).

وكان الإخبار من قبل عن الابتلاء بشيء من الخوف والجوع ونقص في الماديات، ولكن مع اتساع دائرة الدعوة، وازدياد المتربصين بها، يأتي الإخبار للمؤمنين بأن الابتلاء سيكون بما هو أكثر وأوسع مدى.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: 186).

---

(1) أيسر التفاسير 134/1.

(2) أبو السعود العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم 39/1.

(3) في ظلال القرآن 146/1.

وقد خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد، والصبر عليها، حتى إذا لقوها وهم مستعدون، لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة، فينكرها، وتشمئز منها نفسه[1].

فإذا كانت فائدة الابتلاء هي تمييز الخبيث من الطيب؛ فإن الإخبار به التعريف بالسنن الإلهية، وتهيئة المؤمن لها، وحمله على الاستعداد لمقاومتها؛ فإن من تحدث له النعمة فجأة - على غير استعداد ولا سعي ترجى من ورائه - تدهشه وتبطره، وربما تهيج عصبه، فيقع في داء، أو يموت فجأة، وكذلك من تقع به المصيبة فجأة على غير استعداد يعظم عليه الأمر، ويحيط به الغم، حتى يقتله في بعض الأحيان، أما المستعد فيكون ضليعًا قويًّا[2].

والآية تعرض نوعين من الابتلاء:

أولهما: الابتلاء في الأموال والأنفس؛ فالابتلاء في الأموال يكون «بالمصائب والإنفاقات الواجبة، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال، والابتلاء في الأنفس بالموت، والأمراض، وفقد الأحباب، والقتل في سبيل الله[3].

وقدم ذكر المال؛ لأنه الوسيلة التي يكون بها الاستعداد لبذل النفس؛ فبذل المال يُحتاج إليه قبل بذل النفس؛ أو لأن الإنسان كثيرًا ما يبدل نفسه دفاعًا عن ماله[4].

والنوع الثاني من الابتلاء هو ما يمكن أن نسميه بالمصطلح الحديث «بحرب الإشاعات»، أو «الحرب الكلامية»، كالأهاجي التي كان كعب بن الأشراف ينسجها في الرسول (ﷺ) والأكاذيب، والتهكم على القرآن فنحاص اليهودي، وحديث الإفك على عائشة زوج الرسول (ﷺ)، وتأليب اليهود قريشًا لقتال الرسول (ﷺ)[5]، ومما

---

(1) الكشاف 486/1

(2) محمد عبده ورشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم؛ المشتهر بتفسير المنار، 275/4.

(3) فتح القدير 513/1

(4) تفسير المنار، 275/4.

(5) انظر في تفصيل ذلك: تفسير ابن كثير 108/2 - 109، وارجع إلى محمود بن عبد الله المطر في كتابه «الابتلاءات، وخصوصًا الصفحات 101 إلى 131.

كان يسمعه المسلمون من اليهود قولهم «عزيز ابن الله» ومن النصارى قولهم «المسيح ابن الله»[1].

وقد وجه الله (ﷻ) المسلمين إلى التصدي لهذه الابتلاءات بقيمتين نفسيتين ساميتين، وهما الصبر، والتقوى.

«والصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال، وكظم النفس عليه، مع الروية في دفعه، ومقاومة ما يحدثه من الجزع، فهو مركب من أمرين: دفع الجزع، ومحاولة طرده، ثم مقاومة أثره، حتى لا يغلب على النفس، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه؛ فمن لا يحس به لا يسمى صابرًا، إنما هو فاقد للإحساس يسمى بليدًا .. وما أحسن قرن التقوى بالصبر في هذه الموعظة، وهي أن يمتثل ما هدى الله إليه فعلًا وتركًا عن باعث القلب، وذلك من عزم الأمور، أي التي يجب أن تعقد عليها العزيمة، وتصح فيها النية وجوبًا محتمًا لا ضعف فيه»[2].

ونلاحظ أن الله (ﷻ) في آيتي البقرة وآل عمران قد حدد مواضع الابتلاء، أو موضوعاته، وهي الخوف، والأموال، والأنفس، والثمرات، والدعايات، والإشاعات المغرضة الخبيثة، ولكن الله يخاطب المؤمنين بعد ذلك بقوله:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: 31)[3].

فهنا إخبار بالابتلاء دون تحديد، فهو يتسع لكل أمور التكاليف، والسراء، والضراء، حتى يظهر المجاهد المتمثل من القاعد الهلوع، والصابر من الضاجر، «ونبلو أخباركم»؛ أي ما تخبرون به عن أنفسكم، وتتحدثون به، فنظهر الصدق من خلافه فيه؛ ولذا كان الفضيل بن عياض (رحمه الله) إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: «اللهم لا تبطلنا؛ فإنك إذا بلوتنا، فضحتنا، وهتكت أستارنا»[4].

---

(1) فتح القدير 515/1.

(2) تفسير المنار 277/4.

(3) (وسورة البقرة هي الأولى نزولًا وآل عمران الثالثة ومحمد التاسعة وذلك في السور المدنية).

(4) فتح القدير 88/5.

وكانت المواجهات الحربية بين المسلمين والكفار مجال اختبار حقيقي لكشف المعدن النفيس من المعدم الرخيص، والمؤمن من المنافق، وطالب الآخرة من طالب الدنيا، ومن ذلك ما جاء في شأن أُحد[1].

قال محمد بن كعب القرظي: «ولما رجع رسول الله (ﷺ) إلى المدينة وقد أصيبوا مما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: 152).

وكان رسول الله (ﷺ) قد خرج إلى أحد، وهو في سبعمائة رجل، وقريش في ثلاثة آلاف، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير، والرماة خمسون رجلاً، فقال: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك[2].

وكانت المعركة في كل مراحلها ومواقفها ابتلاء كشف عن حقيقة الرجال، ومدى ثباتهم على الحق:

1- فكشفت عن حقيقة المنافقين قبل أن تبدأ المعركة، فبعد أن سار الجيش وكانوا بين المدينة وأحد، انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش، وكر راجعًا بهم، وهو يقول: «عصاني وأطاع الولدان، ومن لا رأي له، وما ندري علام نقتل أنفسنا»[3].

---

(1) الواحدي: أسباب النزول 107.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية 2/65 - 66، نضح بالنبل رمى بها (القاموس المحيط 313).

(3) البوطي: فقه السير النبوية 256، وهو يقصد خروج النبي (ﷺ) لقتال قريش، مع أن النبي كان يرى التحصن بالمدينة، ولكنه استجاب للرأي الآخر، وكان كثير ممن يرى الخروج من الشباب، ولكن سوء النية والغدر المبيت واضح في تصرف رأس المنافقين عبد الله بن أبي وإلا لبقي بالمدينة وما خرج..

2- وكان البلاء الثاني هو بلاء النصر، وانكشاف المشركين منهزمين، لا يلوون على شيء، واعتقد بعض الرماة أن الحرب قد وضعت أوزارها، فشدهم بريق الغنائم، فانحدر أغلبهم إلى ساحة القتال لأخذ الغنائم، ولم يثبت مع عبد الله بن جبير إلا عدد يسير، وتمكن خالد من اقتحام الثغرة بخيله، وقتل من بقي من الرماة وأميرهم، واستشهد من المسلمين عدد كبير، وخلص الكفار إلى رسول الله (ﷺ)، ورموه بالحجارة فكسرت رباعيته، وشج وجهه.

3- وكان الابتلاء الثالث - وهو أشدّها - ما أشاعه الكفار من قتل محمد، فزاد المسلمون انكشافًا وفر كثير منهم، وتوقف بعضهم عن القتال، ولكن كان هناك قمم شامخة من الرجال ظهروا في شدة هذا البلاء، قال ابن إسحاق: انتهى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - إلى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله (ﷺ)، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله (ﷺ)، فقاتل حتى قتل، ووجدوا به يومئذ سبعين ضربة، فما عرفته إلا أخته، عرفته ببنانه[1].

4- وتجلى في هذه الأثناء مظهر رائع للتضحية والفداء ممن كانوا حول رسول الله (ﷺ) من الصحابة، فراحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دون رسول الله، حتى قتل معظمهم.. منهم أبو دجانة الذي جعل من نفسه ترسًا يحمي رسول الله (ﷺ)، والنبل يتلاحق في ظهره، وهو منحنٍ عليه لا يتحول، وكذلك زياد بن السكن، حتى قتل هو وخمسة من أصحابه[2].

فيوم أحد - كما قال ابن إسحاق - كان يوم بلاء، ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحن به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف

وانسحابه بمن معه نزل بعدد جيش المسلمين من ألف إلى سبعمائة بينما كان جيش الكفار ثلاثة آلاف.

(1) سيرة ابن هشام 23/ 83.

(2) انظر البوطي: السابق 260.

بالكفر في قلبه، ويومًا أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته[1].

ولم يتخل المنافقون عن نفاقهم، وجاءت الشدائد، لتزيد من كشف حقيقتهم، ولم يعدموا الحجج الواهية لتبرير الفرار والرجوع والانسحاب من المعركة، كما حدث يوم الأحزاب وحاق الخطر بالمدينة، واضطر المسلمون إلى حفر الخندق: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: 11-13).

وأخذ المنافقون يشيعون روح الهزيمة والخذلان في جيش المسلمين المحاصر:

1- فأنكروا وعد الله ورسوله بالنصر، حتى قال أحدهم: يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقًا.

2- وأمروا الناس بالفرار من عسكر الرسول (ﷺ) (لا مقام لكم فارجعوا). وقيل: قالوا لهم: ارجعوا كفارًا وأسلموا محمدًا، وإلا فليست يثرب لكم بمكان.

3- واعتذروا عن انسحابهم بأن بيوتهم (عورة)، أي معرضة للعدو، ممكنة للسراق؛ لأنها غير محرزة ولا محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها، ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار[2].

وهناك ابتلاء يتعلق بأمور تعبدية، كالذي نراه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة: 94).

قال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا فنهاهم الله عن قتله وهم

(1) سيرة ابن هشام 105/2.

(2) انظر الكشاف 254/3.

محرمون ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا، ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره.. فمن اعتدى بعد هذا الإعلام والإنذار (فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، لمخالفته أمر الله وشرعه[1].

وامتثل المسلمون لأمر الله، واستطاعوا أن يغالبوا هذا الإغراء ويغلبوه، «وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء فلم يصمدا له، واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى، ثم ظل هو الاختبار الذي لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا يتغير فحواه»[2].

وقد اجتاز المسلمون اختبار الإغراء بنجاح، بينما أخفق بنو إسرائيل في ابتلاء مماثل، حين خالف بعضهم أمر الله بالصيد في السبت، فمسخهم الله قردة وخنازير: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ (البقرة: 65)، ووصف الله (سبحانه وتعالى) هؤلاء بقوله: ﴿.. مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ (المائدة: 60).

وقد بين الله (سبحانه وتعالى) مضمون هذا الاعتداء، وسبب هذا المسخ في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: 161).



(1) ابن كثير 117/3..

(2) في ظلال القرآن 1383/3.

سابعًا: الابتلاء وبنو إسرائيل

هاجر النبي (ﷺ) إلى المدينة ولليهود حولها مستوطنات ذات قوة ومنعة، ووفرة في الزرع والمال والتجارة، «وكانوا يثمرون أموالهم بالربا، ويصنعون السلاح، ويبيعونه للعرب الذين لا تنتهي حروبهم، وكانت أكثر الأراضي والبساتين بأيديهم»[1].

وكان بنو قينقاع يقيمون داخل المدينة، ويقيم بنو قريظة في فدك، وبنو النضير على مقربة منها، ويهود خيبر في شمالها[2].

والثابت تاريخيًا أن اليهود ليس لهم أصالة جنسية، أو مكانية في هذه المنطقة، فهم يهود تعربوا، لا عربًا تهودوا. يقول بودلي: «لقد كان اليهود منذ أزمان سحيقة عرضة دائمًا للطرد من وطنهم (فلسطين) الذي استولوا عليه أصلًا بالقوة، ولنذكر بعض الذين طردوهم: فهناك سرجون الثاني سنة 722 ق.م، وبختنصر سنة 586ق.م، وبومباي سنة 63 ق.م، وطيطس سنة 70م، وطردهم هارديان طردًا نهائيًا سنة 135م، فكلما وقع اضطهاد لليهود، رحل المضطهدون إلى ممالك أخرى، وقد تغلغل كثير منهم في جزيرة العرب، فبعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو يثرب كما كانت تسمى، تلك القبائل هي: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وحولوها إلى معقل زراعي[3].

وكان نجاح محمد (ﷺ) والمسلمين في الهجرة والاستقرار بالمدينة دافعًا إلى أن تكتب قريش إلى عبد الله بن أبي سلول ومن معه من المنافقين يحرضونهم

---

(1) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي: الكتاب الأول 75.

(2) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد 236.

(3) ر.ف. بودلي: الرسول حياة محمد 148.

على قتال محمد، وإلا فإن قريشًا ستزحف إليهم لتقاتلهم[1]، ولكن هذا الكتاب لم يأت بالثمرة المرجوة، فاتجهت قريش إلى اليهود لنفس الغرض، وكتبوا إليهم «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء»[2].

ولكن النبي (ﷺ) أبدى حسن النية، وحرصه على الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، واقتضى حرصه (ﷺ) على ترسيخ قواعد الدولة المركزية الجديدة إلى تنظيم العلاقات التي تربط بين الدولة الناشئة، وبين الأنصار، وقبائل اليهود المختلفة، وهو أول كتاب تنظيمي كتبه النبي (ﷺ) بعد وصوله إلى المدينة[3]. وهو يحدد في تفصيل ودقة عجيبة الحقوق، والواجبات التي تلتزم بها كل جماعة وقبيلة[4].

ولكن اليهود لم يلتزموا على مدار السنوات العشر التي قضاها النبي (ﷺ) في المدينة بما نص عليه كتاب الموادعة، فعاشوا ينهجون نهج الغدر، والخيانة، والفساد، والكذب، والتآمر[5].

ونزل فيهم من الآيات مئات، أغلبها مدني، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على ثلث سورة البقرة وحدها، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وهي كذلك أطول سور القرآن، إذ تبلغ آياتها 287 (مائتين وسبعًا وثمانين آية).

(1) انظر قميحة: أدب الرسائل في صدر الإسلام 50.

(2) د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ٥٠. والخدم: جمع خدمة وهي الخلخال أو الساق.

(3) انظر نص الكتاب في السيرة النبوية لابن هشام 1/ 501 - 504، وحميد الله: مجموعة من الوثائق السياسية: 50.

(4) انظر تفصيل ذلك: قميحة: أدب الرسائل في صدر الإسلام 60 - 68.

(5) في جرائم اليهود ارجع لكتاب النبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز 155 - 156. والفصل الأول من (وسائل أعداء الإسلام في التضليل» للباحث. (مخطوط)

والآيات في مجموعها تذكر اليهود بفضل الله على آبائهم، وأجدادهم، وكيف نقضوا العهود والمواثيق، وجحدوا نعم الله، وقتلوا الأنبياء، وعبدوا العجل، وحرفوا التوراة، واعتدوا في السبت، وكيف غدروا بالنبي (ﷺ) وظاهروا عليه. وتصور وقائعه معهم، وانتصاراته عليهم.. إلخ.

ويعرض القرآن في حياة بني إسرائيل مجموعة من الابتلاءات: الابتلاءات بالنعم الموجبة للشكر، والابتلاءات بالنقم والكوارث، والخطوب الموجبة للصبر، ولكنهم في الحالين لا شكروا، ولا صبروا، بل عصوا، وتنكروا، وجحدوا، وحرفوا، وتمحلوا، وهو شأنهم في كل عصر وحين.

ولقد فصل القرآن ذلك في سور وآيات مكية قبل هجرة الرسول (ﷺ)، وقبل تعامله مع اليهود، وتجاربه الشاقة معهم في المدينة، فيذكر الله يهود الحاضر[1]. بما وقع ليهود الماضي، وما وقع منهم، ويستحضر أمامهم آلاء الله عليهم، وما أصابهم من نكبات وكروب، وكان ما نزل فيهم من الآيات المدنية أكثر وأطول وأشد تفضيلًا.

وهناك ملحظ يشدنا إليه، وهو أن الله (سبحانه وتعالى) حينما يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل - وهم يهود المدينة بلا خلاف - يتحدث إليهم كأنما هم أصحاب هذا الماضي الذي عاشه أجدادهم من منن ومحن، مع أنهم لم يشهدوا من ذلك شيئًا، ولم يعيشوا في البيئة التي وقعت فيها هذه الأحداث، وكأنما المقصود - والله أعلم - الإيحاء بأنهم امتداد طبيعي لهؤلاء الأجداد، وتكرار خلقي ونفسي لما جبلوا عليه من عناد، وجحود، ونكران، وغدر، كما نرى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ

(1) أقصد بيهود الحاضر: الذين عاصروا النبي (ﷺ).

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (الأعراف: 141)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: 49).

والبلاء في الآيتين ذو وجهين؛ فهو يعني الاختبار بالنقم من تذبيح الأبناء، واستبقاء آل فرعون لنسائهم من أجل الخدمة، والوجه الثاني، أنه اختبار بالنعمة: نعمة الإنجاء من آل فرعون، وظلمهم، وعبورهم البحر، ولكنهم قابلوا ذلك بالكفران والجحود، فكانت سقطتهم الكبرى بعبادة العجل[1].

ومن ابتلاءات المواقف التي تكشف عن حقيقة بني إسرائيل معارضتهم نبيهم شمويل في تنصيب طالوت ملكًا عليهم بأمر من الله؛ لأنه (لم يؤت سعة من المال) فقال نبيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة: 247).

وبذلك قدم لهم المسوغات الحقيقية لتمليكه، وأولها اصطفاه الله له، ثم ما اتسم به من صفات شخصية كالعلم الفائق، وبسطة الجسم وقوته، وحملت الملائكة إليهم التابوت مما يدل على تمليكه، فقبلوا الوضع الجديد مكرهين، وساروا معه لقتال جالوت، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: 249).

ولما كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان أذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختيار والابتلاء، أراد

(1) راجع قصة العجل في الآيات 87 - 97 من سورة طه.

الله أن يبتلي هذا القائد جنده، ليعلم المطيع، والعاصي، والراضي، والساخط، فيختار المطيع الذي يرجى بلاؤه في القتال، وثباته في معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، ويخشى في الوغى خذلانه؛ فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر.

أخبر طالوت جنوده بأنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله: فمن شرب منه، فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال، إلا أن يكون ما يشربه قليلاً، وهو غرفة تؤخذ باليد، فإن هذا مما يتسامح فيه، ولا يراه مانعًا من الاتحاد به، والاعتصام بحبله، ومن لم يطعمه أي يذقه بالمرة، فإنه منه، وهو الذي يركن إليه، ويوثق به تمام الثقة؛ فالابتلاء سيكون على ثلاث مراتب.

- مرتبة من يشرب فيروى، لا يبالي بالأمر، وحكمه أن يتبرأ منه.
- مرتبة من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه، وهو مقبول في الجملة.
- ومرتبة من لا يذوقه البتة، وهو الولي النصير الذي يوثق باتحاده، ويعول على جهاده[1].

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ذلك أن القوم كانوا قد فسد بأسهم، وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم، وشق عليم مخالفة الشهوة، وإن كان فيها هوانهم، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل.. فلما جاوز النهر طالوت هو والذين آمنوا معه، قال الجنود والذين شربوا من النهر إلا قليلًا منهم: لا طاقة لنا بجالوت وجنوده[2].

وهنا برزت الفئة المؤمنة القليلة المختارة والفئة ذات الموازين الربانية ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

(1) تفسير المنار 2/486 - 487.

(2) السابق 2/487.

(3) الظن هنا بمعنى العلم اليقيني (انظر المفردات للراغب 320).

إنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين، وقاهر المتكبرين وهم يكلون هذا النصر لله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ويعللونه بعلته الحقيقية ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

وكان اللقاء الحاسم بين القلة المؤقتة الصابرة، والكثرة الكافرة المغرورة، واتجهت قلوب الفئة المؤمنة إلى الله، يدعونه بكل مشاعرهم أن يفيض عليهم الصبر، فلا يأخذهم الضجر والهلع، وأن يثبت منهم الأقدام، فلا يفروا، وأن يحقق لهم النصر المؤزر المبين، فكانت الهزيمة النكراء لجيش الكفر والكذب والبهتان ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾، وكان داود جنديًا في جيش طالوت، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ (البقرة: 251).



(1) في ظلال القرآن 269/1.



الفَصْلُ الثَّانِي

من هدي السنة في الابتلاء

أولًا: الابتلاء في أحاديث قصصية

1 - الابتلاء بالضراء

أخرج الإمام مسلم في صحيحه قال:

حدثنا هداب بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب أن رسول الله (ﷺ) قال: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتي الساحر مرّ بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب، فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه، والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء.

فسمع به جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله تعالى، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجيء

بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرقه رأسه فشقه، حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به، حتى وقع شقاه، ثم جي بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه.

فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك! فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأُتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله، نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت، وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل

له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق[1].

وهذا الحديث القصصي - كما هو واضح - يذكر السبب المباشر الذي دفع الملك الكافر إلى شق الأخاديد، وإضرام النار، وإلقاء المؤمنين المتمسكين بدينهم فيها، وإن أشار الحديث إلى ما فعله الملك الضالع في الكفر من تعذيب، وقتل لأفراد قبل ذلك أصروا على الإيمان، كما فعل بجليسه، وكما فعل بالراهب.

ونخلص من الحديث إلى عديد من الحقائق والقيم في مجال العقيدة والسلوك والخلق:

1 - فيه إثبات كرامات الأولياء.

2 - وفيه جواز الكذب في الحرب ونحوها، وفيه إنقاذ النفس من الهلاك، سواء نفسه أو نفس غيره ممن له حرمة[2].

3 - وفيه حقيقة يقينية، وهي أن الله سبحانه وتعالى يستجيب لعباده المؤمنين مصداقًا لقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ (غافر: 60)، فالله (ﷻ) استجاب دعوة الغلام بقتل الدابة، واستجاب دعوتي الغلام بالقضاء على رجال الملك الذين أُمروا بإلقائه من ذروة الجبل، والذين أُمروا بإغراقه. والدعاء هو مخ العبادة، والله سبحانه قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحق، وما يبدل القول لديه، ولا يخلف الميعاد[3].

4 - وفيه أن على المؤمن - خصوصًا إذا كان داعية - أن يرجع الأمر كله إلى الله، وبخاصة ما منحه الله من مواهب وقدرات وعلم وغنى، وقد رأينا قول الغلام: «إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله».

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الزهد. باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام 850/5 والقرقور: السفينة الصغيرة وقيل: الكبيرة.

(2) شرح النووي على مسلم 848/5.

(3) انظر فتح القدر 617/4.

ولا كذلك منطق الجاحدين الذين يعتبرون أنفسهم وقدراتهم ومواهبهم هي مصدر الغنى والنعمة والسلطان، ومن أمثال قارون الذي يقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص: 78). وكانت نتيجة هذا الجحود، والغرور والاستعلاء الشيطاني أن خسف الله به وبداره الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾(القصص: 81).

5 - وفيه أن على الداعية أن يهتبل كل فرصة للدعوة إلى الله، وعقيدة الحق على بصيرة، ويتخذ من المواقف والمناسبات مجالاً لنشر دعوته ما يستطيع؛ فالمؤمن فطن.

6 - وفيه أن على المؤمن الداعية أن يحسن التدبير والتخطيط لنشر دعوته، وتمكينها من النفوس، وترسيخها في القلوب، ولو كان في ذلك التضحية بالنفس والنفيس: فالغلام كان يستطيع أن يفر من وجه الملك، ويعيش في سلامة وأمان بعد أن نجا من محاولتين لقتله بطرحه من ذروة جبل، ثم بإغراقه في البحر، ولكنه آثر الرجوع إلى الملك، ورسم له خطة ترضي غروره، ولم يفطن الملك الكافر لهدف الغلام، وهو نصر دعوته وإقناع الناس بالإيمان بها، «تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: «باسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني».

ولم يفطن الملك إلى الخدعة إلا بعد أن وقع ما كان يحذره، وعلى نطاق أوسع مما كان يظن، حين قال الناس: «آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام».

ولم يجد الملك أمامه إلا المنطق المنكود الغاشم، منطق القوة بالحرق، والقتل، وسفك الدماء للقضاء على دعوة الحق، ودعاة الحق، ولكن منطق الحق انتصر، وسيظل منتصرًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

2 - **الابتلاء بالسراء** (حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل):

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: إن «ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، وقد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر، هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس، قال: فمسحه، فذهب، وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملًا، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس قال فمسحه فرد الله إليه بصره، قال:فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدًا، فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا الرجل من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرًا أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا، فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى، فرد الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، خذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»[1].

وفي الحديث السابق نرى عرضًا قصصيًا، يتجاوز به الرسول (ﷺ) مجرد الإخبار بما وقع، ويتجاوز به حدود التاريخ إلى ما هو أسمى وأجدى، وهو التأثير والإيحاء، ولو كان الأمر أمر إخبار بوقائع، أو مجرد التعريف بالحدث التاريخي في ذاته، لكان بالإمكان أن ينقل ذلك الحدث بجهد أقل، وفي سطور معدودة[2].

وفي الحديث - كما يقول ابن حجر العسقلاني - جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه، ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا هو السر في ترك تسميتهم..

وفي التحذير من كفران النعم، والترغيب في شكرها والاعتراف بها وحمد الله عليها.

وفيه فضل الصدقة، والحث على الرفق بالضعفاء، وفيه الزجر عن البخل؛ لأنه حمل صاحبه على الكذب، وعلى جحد نعمة الله تعالى[3].

وإغفال ذكر أسماء الشخصيات في هذه القصة، وسابقتها، وكثير من قصص القرآن الكريم، والحديث الشريف ليس من قبيل تفادي الغيبة فيهم؛ لأن ما ذكر حقيقة واقعة، لا خيال وادعاء، ولكن نرى - والله أعلم - أن عدم ذكر الأسماء يرجع

---

(1) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء (60) باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (51) حديث 3464 - 578/6.

(2) محمد بن حسن الزير: القصص في الحديث النبوي ٢٥٧.

(3) فتح الباري 581/6.

إلى أنها لا تضيف للمعروض القصصي شيئًا، لا من الناحية الفكرية الموضوعية، ولا من الناحية الفنية، فالقصة ليست من «قصص الشخصية»، ولكنها من «قصص المغزى»؛ أي التي ترمي إلى تحقيق غايات دينية، وإنسانية، وتربوية، وأخلاقية، وسلوكية في المقام الأول بطريقة فنية آسرة.

فالدروس والقيم التي تطرحها هذه القصة لم تسق بطريقة مباشرة، وإن أشارت إلى محورها الأساسي ابتداء وانتهاء وهو الابتلاء:

- إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى بدا لله أن يبتليهم.. ثم تكون «لحظة التنوير» ختام القصة على لسان الملك للذي رد الله عليه بصره:

أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك.

ولعل من أهم آليات قوة الإيحاء في هذه القصة اثنتين:

الأولى: الحوار الذي جاء في أسلوب ممتد هادئ، وبعبارات عفوية بسيطة، فكل منهم يعرض أمنيته معللة بعلة واقعية، وهي اشمئزاز الناس من منظر الأقرع والأبرص، وحرص الأعمى على أن «يرى الناس»، والواقع يقول إن صاحب الآفة يعاني من الناس، ومن نظرة الناس وقسوتهم عليه أكثر مما يعاني من ألم الآفة نفسها.

أما الآلية الثانية فهي: «أسلوب المفارقة»، وهي هنا مفارقة في نطاق الشخصية الواحدة بين حالين متناقضين: حال المحنة التي كان يعيشها المبتلى بآفته والناس يقذرونه، أي يشمئزون منه، ولا يخالطونه، ولا يتحملون النظر إليه، وخصوصًا أن الآفة كان معها فقر مدقع شديد، وحال النعمة، حيث لا مرض، ولا فقر، ولكن جمال في الخلقة، ورغد في العيش، وغنى مفرط، ونعمة ممتدة.

والنوع الثاني من المفارقة: هو المفارقة بين نموذجين من الشخصية.

- نموذج الجاحد الكذوب الكافر بأنعم الله، الضانّ على الفقراء ببعض ما أعطاه الله، وهذا النموذج يمثله الأبرص والأقرع.

- ونموذج المبتلى الشاكر الذي أنعم الله عليه، فأقر بنعمته، وشكر الله على ما أنعم، وما قبض يده عن سائل أو محروم. وهذا النموذج يمثله الأعمى.

وهذه المفارقة - مفارقة المواقف والأحوال في نطاق الشخصية الواحدة، والمفارقة في نطاق الشخصيات المتعددة - تزيد من إبراز الفروق بين المتناقضات، وتكسب الصورة قوة في الإيحاء، وتقنع المتلقي بعدالة الجزاء بعد أن اتضحت أمامه - بصورة فارقة قاطعة - كل الملامح والأبعاد.



ثانيًا: عـرض الابتـلاء إجـابة على سؤال

عن خباب بن الأرت (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) قال:

شكونا إلى رسول الله (ﷺ)، وهو متوسد ببُرْد له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟

فجلس محمرًا وجهه، فقال:

"قد كان من كان قبلكم يُؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار، فيوضع فوق رأسه، ما يصرِفه عن دينه، أو يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ما يصرفه عن دينه، وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون»(1).

إن فئة من المسلمين ممن تعرضوا لتعذيب الكفار وإهاناتهم يقصدون رسول الله (ﷺ)، وقد ضاقت بهم الحال، ولا عجب أن يقصدوا رسول الله (ﷺ) إذا ما حزب الأمر، واشتد الكرب والظلم والعدوان الواقع عليهم؛ لكي يدعو ربه أن يكسر الكفار، وينتقم لهم ممن ظلموهم، ولكن النبي (ﷺ) لم يفعل.

قال ابن بطال في تعليل ذلك: «إنما لم يجب النبي (ﷺ) سؤال خباب ومن معه

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: حديث 3612 - 6/ 716. وكتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي (ﷺ) وأصحابه من المشركين بمكة، حديث 3852 - 7/202. وكتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث 6943 - 12/ 330 (فتح الباري).

وأخرجه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد. باب الأسير يكره على الكفر (بألفاظ مقاربة) حديث 2649 - 3/ 47. وأحمد في مسنده، بإسناد صحيح. حديث 20956 - 15/ 391.

هذا ويحتمل أن يريد النبي (ﷺ) صنعاء اليمن، وبينها وبين حضرموت مسيرة خمسة أيام. ويحتمل أن يريد صنعاء الشام. والمسافة بينهما أبعد بكثير.

(انظر: فتح الباري 6/ 716. وياقوت الحموي: معجم البلدان 3/ 426)

بالدعاء على الكفار مع قوله تعالى «ادعوني أستجب لكم»، وقوله «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا»؛ لأنه علم أنه قد سبق القدر بما جرى عليهم من البلوى، ليؤجروا عليها، كما جرت به عادة الله تعالى في من اتبع الأنبياء، فصبروا على الشدة في ذات الله، ثم كانت لهم العاقبة بالنصر، وجزيل الأجر، قال: فأما غير الأنبياء فواجب عليهم الدعاء عند كل نازلة؛ لأنهم لم يطلعوا على ما اطلع عليه النبي (ﷺ)...»[1].

وليس في الحديث بأنه (ﷺ) لم يدع لهم، بل يحتمل أنه دعا، وإنما قال «قد كان من قبلكم يؤخذ...» تسلية لهم، وإشارة إلى الصبر حتى تنتهي المدة المقدورة، وإلى ذلك الإشارة بقوله في آخر الحديث «ولكنكم تستعجلون»[2].

والحديث يشدنا إلى عدة معان وإيحاءات غير ما سبق:

1 - فجلوس الرسول (ﷺ) واحمرار وجهه بعد أن كان متوسدًا يدلنا على شدة اهتمامه بأمر المسلمين، ومشاركتهم همهم.

2- ونرى الرسول (ﷺ) لم يجب على السؤال الذي طرحه خباب ومن معه من الصحابة (رضي الله عنهم)، ولكنه انتقل بهم نقلة أخرى إلى ماضي المؤمنين المبتلين الثابتين الصابرين، فالقضية أكبر بكثير من إيذاء عابر، ودعاء على الظالم المؤذي، إنما هي سنة ربانية أزلية: سنة ابتلاء المؤمنين على مدار التاريخ، والصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، وهي سنة يجب أن يعيها، ويستوعبها، من يأخذ نفسه بدعوة الحق، وقد قدم رسول الله (ﷺ) للفئة الشاكية من الصحابة صورة من صور البلاء الذي كان ينزل بالمؤمنين في العصور السابقة، وكيف ثبتوا على الحق، وصبروا ولقوا مصارعهم في الله بصورة وحشية بشعة.

3- ولكن الرسول (ﷺ) يفتح قلوب المؤمنين للأمل؛ فالمؤمن لا يعرف اليأس. ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (يوسف: 87). والحقيقة التي

(1) فتح الباري: 6/ 581.

(2) السابق، الصفحة نفسها.

يجب أن يعيها المؤمنون هي أن النصر لدين الله في النهاية، وأن ما يصيب المؤمنين من الابتلاء إنما هو ضريبة الإيمان ﴿.. وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: 140، 141).

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله (سبحانه وتعالى) بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية... ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، تحقيقًا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق وخلص من الشوائب والتمحيص.

4- وثمة توجيه يستخلص من قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في آخر الحديث «ولكنكم تعجلون»، وهو أن على المؤمنين، وأصحاب الدعوات ألا يستعجلوا الثمرة، بل عليهم أن يبذلوا في سبيل عقيدتهم أقصى ما يملكون من طاقات، ويقدموا من التضحيات ما يتطلبه الانتصار للحق، حتى يكون للثمرة طعم وقيمة بعد طول المعاناة، وبالتجربة والمعاناة تنضج شخصية المسلم، ويقوى نسيجها، ويكون جديرًا بالنصر. وفي كل الأحوال يكون المؤمن ظافرًا، ما دام ملتزمًا حدود الله، سالكًا درب الحق والجهاد في المنشط والمكره؛ مصداقًا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، روايةً عن صهيب بن سنان: «عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيرًا له»[1].

ومن الأحاديث التي جاءت إجابة على سؤال، ما رواه مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه:

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الزهد. باب المؤمن أمره كله خير 5/ 844.

والدارمي في سننه بنحوه: كتاب الرقاق (20) - باب المؤمن يؤجر في كل شيء (61) حديث 2675 - 2/ 774. كما أخرجه أحمد في مسنده بنحوه بإسناد صحيح. حديث 8836/، 8841/ - 14/ 323، 325.

«قلتُ يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة، زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة، خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[1].

وتوجه المسلمين إلى الرسول (ﷺ) بهذا السؤال له دلالتان:

الدلالة الأولى: أنهم ذاقوا البلاء في سبيل إسلامهم: تعذيبًا وفقرًا وحرمانًا وإهانة، ومنهم من لاقى ربه شهيدًا، وهو يعذب مثل ياسر بن عامر، وزوجته سمية بنت خياط[2].

والدلالة الثانية: كسب اليقين أو زيادته وتثبيته، وذلك بمعرفة مدى ارتباط البلاء بصدق الإيمان، ومكان الدين في قلب المؤمن، وجزاء الصبر على البلاء.

فالحديث يجزم بأن العلاقة بين الإيمان والابتلاء علاقة طردية، فبقدر الإيمان يكون البلاء لذا كان الأنبياء - وهم دعاة الحق والهدى - أكثر الناس تعرضًا للبلاء وعدوان المعتدين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: 112)، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: 31).

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد (37). باب ما جاء في الصبر على البلاء (56).
حديث 2398 - 4/ 601. وقال حسن صحيح.
وابن ماجه في كتاب الفتن (36). باب الصبر على البلاء (23) - حديث 4023 - 3/427.
والدارمي في كتاب الرقاق (20) باب أشد الناس بلاء (٦٧) حديث 2681 - 2/ 776.
وأحمد في مسنده، بإسناد صحيح. حديث 1481 - 2/227.

(2) قدم ياسر العنسي من اليمن إلى مكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة، فزوجة أمة له يقال لها سمية فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة، وكانت هذه الأسرة من أسبق الناس إلى الإسلام، فأنزل بهم الكفار تعذيبًا رهيبًا حتى مات ياسر من التعذيب، وقتل أبو جهل سمية بطعنة من رمحه. وكان النبي (ﷺ) يمر بهم ويقول: صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة. وقتل عمار في موقعة صفين وهو يحارب في صف علي بن أبي طالب (الإصابة 3/ 647).

ولا عجب أن يكون الأنبياء هم أشد الناس بلاء، وأكثرهم صبرًا وتحملًا للشدائد والمحن؛ لأنهم القدوة والأسوة، وإلا ما بقي أحد ثابتًا على إيمان، ولا متحليًا بصبر. وكذلك كان الصفوة من الرعيل الأول من المسلمين يقبلون على الله، ويرغبون إليه في السراء والضراء سواء، مع أن «حال الشدة والبلوى تكون مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ (يونس: 12).

ولأجل هذا تقللوا في المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والمجالس، والمساكن، والمراكب، وغير ذلك، ليكونوا على حال توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى عز وجل، والإقبال عليه[1].



(1) العز بن عبد السلام: الفتن والبلايا والمحن والرزايا 21.

ثالثًا: البلاء بين المؤمن والمنافق

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «مثل المؤمن كمثل الخامة[1] من الزرع: من حيث أتتها الريحُ كفأتْها، فإذا اعتدَلَتْ تكفَّأ بالبلاء. والفاجر كالأَرْزَة صماءَ معتدلةً حتى يقْصِمها الله إذا شاء»[2].

والحديث موازنة موجزة ولكنها وافية بين نقيضين: شخصية المؤمن، وشخصية المنافق أو الكافر الذي عبر الحديث عنها بالفاجر، وكلاهما - الكافر والمنافق - ينهل من منبع واحد، وهو رفض الحق والهدى، واتباع الضلال، ومعاداة دين الله، الكافر بوجه متبجح صريح، والمنافق يستتر وراء مظهر من الرياء والادعاء والكذب.

فالمؤمن معرض دائمًا لريح البلاء بمرض أو فقر أو إيذاء من الكفار، وهو يكيف حياته وواقعه تبعًا لما يلقى حتى يصبح البلاء في حياته من الأمور العادية التي لا ينهزم أمامها؛ لأنه يعلم أن أمره كله خير، وأنه ظافر على كل حال بالصبر على ما يبتلى به في حالة الضراء، وشكر الله على ما أنعم به عليه في حالة السراء، كما أن طول المعاناة يكسبه قدرة على الصمود والتكيف - بالنفس المهيأة دائمًا - مع كل واقع يعيشه، وكل نازلة تحل به.

أما الفاجر - كافرًا كان أو منافقًا - فهو جامد، أصم، متبلد الفكر، متحجر القلب والضمير، لا يأخذ مما يصيبه - سراء أو ضراء - دروسًا وعبرًا، بل ينكر

---

(1) الخامة: الزرع أول ما ينبت على ساق واحدة. والأرز شجر معتدل صلب لا تحركه الريح (فتح الباري 10/ 111).

(2) الحديث متفق عليه، فقد أخرجه البخاري في أول كتاب المرضى (75). باب ما جاء في كفاءة المرض (1) حديث 5644 - 10/107. ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - 5/653. وكذلك أخرجه الدارمي عن كعب بن مالك: كتاب الرقائق (20) - باب مثل المؤمن كمثل الزرع (36) - حديث 2647- 2/ 765. وأحمد بإسناد صحيح بألفاظ مقاربة. حديث 2647- 2/ 765.

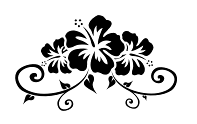
فضل الله عليه، ويعتقد أنه لا غالب له، وينسى أن بطش الله شديد، وهو القائل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الدخان: 16)، وتحقق ذلك في بدر، وقصم الله عتاتهم وطواغيتهم من أمثال أبي جهل، وأمية بن خلف. وهذا ما حدث لفرعون وقومه: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: 42).

ومن البلاغة النبوية استخدام (القصم) مع الأرزة بعد وصفها بأنها (صماء معتدلة)، والقصم منصرف كذلك للمشبه وهو الفاجر كافرًا كان أو منافقًا. والقصم لغة: هو دق الشيء، أو كسر الشيء الشديد حتى يبين، أي كسره كسرًا فيه بينونة.

ورجل قصم: أي سريع الانقصام هيَّاب ضعيف[1]. ومن المجاز: نزلت بهم قاصمة الظهر. قال الشاعر:

كأن لم يلاقِ المرءُ عيشًا بنعمةٍ

إذا نزلتْ بالمرء قاصمةُ الظهرِ[2]



(1) لسان العرب 5/3656.

(2) الزمخشري: أساس البلاغة، 369.



من صور الابتلاء في الأمم الغابرة

كما عرضها القرآن الكريم

تمهيد

عرض القرآن الكريم صورًا من واقع الحياة الغابرة لابتلاء الله لبعض الخلق فرادى وجماعات، لمعرفة مكانهم من الإيمان، ومكان الإيمان منهم، وتمييز الصادقين من الكاذبين، والصابرين من القانطين المفزوعين، والشاكرين من الجاحدين. والقرآن في عرضه لهذه الصور يربطها بالواقع الذي يعيشه الناس أيام نزوله، ويمتد التأثير ولا شك إلى الأجيال التالية من الناحية الزمانية، وإلى شتى أرجاء الأرض من الناحية المكانية، بوصف القرآن دستور الحياة لكل زمان ومكان، وبوصف الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وبوصف النبي (ﷺ) هو خاتم الرسل والنبيين، وقد بعث للخلق كافة: عربهم وعجمهم، وإنسهم وجنهم.

وجاءت صور الابتلاء في القرآن الكريم على ثلاثة أضرب هي: الابتلاء بالسراء، والابتلاء بالضراء، والابتلاء بالآيات، وهو أكثر ارتباطًا بالابتلاء بالضراء. وهذا ما نعرضه في الصفحات التالية.



أولاً: الابتــلاء بالســراء

الله (ﷻ) هو الرزاق، وهو مقدر الأرزاق، وقاسمها ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: 22). وقد أنعم الله على عباده بنعم لا تحصى ولا تعد ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: 18).

ومن أظهر نعم الله على عباده المال، والأولاد، يقول تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: 46).

ويقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: 28).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن: 15).

وهذه النعم – أيا كان نوعها – توجب على المخلوق شكر الله عليها بلسان المقال، وشكره عليها بلسان الحال؛ بأداء ما أمر الله به تجاهها. ولكن الواقع على مدار التاريخ نجده في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13).

وفي تعليل ذلك يقول أبو حامد الغزالي: «اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة، ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان»[1].

ونحاول فيما يأتي أن نقدم ثلاث صور للابتلاء بالسراء في القرآن الكريم، وما تعكسه من دلالات ودروس وعبر:

1- أصحاب الجنة. 2- صاحب الجنتين. 3- قارون.

---

(1) إحياء علوم الدين م3- 12/ 2275.

1 - أصحـاب الجنــة

عرضت سورة القلم قصة أصحاب الجنة في الآيات من 17 إلى 33، وهي السورة الثانية نزولًا بعد سورة العلق[1]: يقول تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (القلم: 17 - 33).

والآيات تصور وقائع هذه القصة في دقة ووضوح، وقد ذكر بعض السلف أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل اليمن. قال سعيد بن جبير كانوا من قرية يقال لها: «ضروان» على ستة أميال من صنعاء، وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفضل. فلما مات وورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء، ولو أنا منعناهم، لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك، عوقبوا

(1) يرى سيد قطب أن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يرجح غير ذلك، حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها، فتقول عن رسول الله (ﷺ) تلك القولة الفاجرة، وأخذ القرآن يردها وينفيها، ويهدد المناهضين للدعوة ذلك التهديد الوارد في السورة. (في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٥٠). ويروى عن ابن عباس وقتادة أن السورة من أولها إلى ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ (1 - 16) مكية. ومن بعد ذلك إلى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (17 - 50) مدنية. وباقيها مكي (فتح القدير 5/ 330).

بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية: رأس المال، والربح، والصدقة، فلم يبق لهم شيء[1].

وبصرف النظر عن مكان الواقعة، وجنسية أشخاصها، فإن ذلك لن يغير من الواقع وانعكاساته ودلالاته شيئًا، فهناك شخصية غائبة، كريمة، صالحة، هي شخصية الأب المورث الذي تعود أن يطعم المساكين والمحتاجين من خراجها. وهذا ما يشي به الحوار بين الأبناء الورثة الذين آلت إليهم ملكية هذه الجنة، فدفعهم الحرص والجشع إلى مخالفة ما كان متبعًا من قبل.

لقد حل موعد الحصاد أو جني الثمار، وأقسم الإخوة، ألا يجنوا ثمارها إلا في الصباح الباكر، قبل أن يشعر المساكين، والمحتاجون بذلك، فيأخذوا شيئًا من ثمارها على سبيل الصدقة كما تعودوا من قبل، ولم يستثنوا في حلفهم؛ أي لم يقولوا: «إلا أن يشاء الله»، فأرسل الله على الجنة نارًا أكلت ثمارها، حتى غدت كالليل المظلم الأسود الشديد السواد، وذلك من شدة النار التي أرسلت عليها. وكل ذلك وأصحاب الجنة لما يعلموا به.

وفي الصباح الباكر نادى بعضهم بعضًا، وانطلقوا إلى جنتهم، وهم يتحدثون ويتشاورون بصوت خافت، حتى لا يشعر بهم المساكين، وذوو الحاجة، وكانوا واثقين من قدرتهم على تنفيذ ما عقد عليه العزم بليلهم.

فلما بلغوا جنتهم، ورأوا ما هي عليه من صورة بشعة، وقد جلل السواد ما تبقى منها من أثر الحريق الذي طاف بها، اعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق إليها، ولكنهم بعد قليل اكتشفوا الحقيقة المرة، وأن غضب الله قد حل بهم، فحرمهم ثمار جنتهم، بل أصول جنتهم، فلم تعد تصلح للإثمار مرة أخرى، وهنا وبخهم أوسطهم الذي كان على نهج إيماني بخلاف بقية إخوته، وذكرهم بنصح لم يأخذوا به أنفسهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، أي هلا تسبحون الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وأنعم به عليكم، ﴿قَالُوا

(1) تفسير ابن كثير 8/ 106.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا، واعترفوا، حيث لا ينجع[1]، وأخذ يلوم بعضهم بعضًا، ويعترفون بظلمهم وبغيهم، ويبدون الندم على ما فرط منهم، ولات حين مندم.

وفي الآيات دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: 25). وفي الصحيح عن النبي (ﷺ): «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[2]. وفي تفسيره آية سورة الحج السابقة نقل القرطبي قول ابن مسعود وابن عمر وآخرين أن من تعظيم حرمة مكة توعد الله تعالى عن نية السيئة فيها. ومن نوى سيئة، ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة[3].

والواقع أن عزم هؤلاء الإخوة لم يكن مجرد نية عابرة ولكن كان عزمًا أكيدًا في إصرار عنيد لا يقبل التراجع. فهو «خطيئة نفسية» تكاد ترقى إلى مرتبة الفعل.

كما أن هذا العزم قد بدئ في تحقيقه فعلا باتخاذ «الأعمال التحضيرية» التي توصل إلى الخطيئة المنشودة وهي حرمان المساكين من صدقة هذه الثمار. وتتمثل هذه الأعمال التحضيرية في: القسم والاتفاق بليل، والتجمع في الصبحة الباكرة، والتخافت في الحديث، والسير إلى الجنة دون إشعار الآخرين. ولكن الله ضرب إرادتهم بإرادته وأفسد مخططهم بعد أن بدؤوا بتنفيذه، وحرق جنتهم حتى أصبحت كالصريم.

إنها صورة من صور الابتلاء بالنعيم... وهذا النعيم من الله (سبحانه وتعالى) - كما أشرنا من قبل - يستوجب شكر الله قولًا... وشكر الله عملًا... بإخراج ما تعلق بالمال من

---

(1) ابن كثير 8/ 106.

(2) القرطبي: 8/ 6720. والحديث متفق عليه. أخرجه البخاري (واللفظ له) في كتاب الإيمان (2) باب: المعاصي من أمر الجاهلية (22) 100/ 106. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة (52). باب: إذا تواجه المسلمان بسيفهما 5/ 76.

(3) القرطبي: 5/ 4428.

حقوق الفقراء والمساكين.

ونلمح في تذييل القصة ابتلاء بالضراء كذلك، وإن لم يستغرق الموقف حيزًا واسعًا، والضراء تتمثل في حرق الجنة، وقد وفق هؤلاء الإخوة في مواجهة هذا الابتلاء، ويتمثل هذا التوفيق في الاعتراف بالخطأ، والعصيان، والظلم، والعدوان، والشعور الحاد بالندم، والتوبة إلى الله، والرغبة إليه ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ (القلم: 29 - 32).

والله (ﷻ) يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، وفي الوقت ذاته يُشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين - من كبراء قريش - من آثار النعمة والثورة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائجه. وسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء، فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلًا لعاقبتهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم[1].

والربط بين سنة الله في الغابرين وسنته في الحاضرين واضح من أول آية في هذه القصة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي امتحنا كفار مكة بالمال، والولد، والجاه، والسيادة، فلم يشكروا نعم الله عليهم، بل كفروا بها بتكذيبهم رسولنا، وإنكارهم توحيدنا، فأصبناهم بالقحط، والقتل، لعلهم يتوبون، كما امتحنا أصحاب الجنة فتابوا، وعادوا إلى طاعة الله[2].

(1) في ظلال القرآن 6/ 3666.

(2) انظر: لأبي بكر الجزائري: أيسر التفاسير 5/ 410 - 411.

2 - صاحب الجنتين

صورة أخرى من صور الابتلاء بالسراء عرضتها آيات من سورة الكهف (الآيات من 32 إلى 44):

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾.

اختلف المفسرون في الرجلين اللذين ضرب بهما المثل: هل هما مقدران، أم محققان؟ فقال بالأول بعض المفسرين، وقال بالآخر بعض آخر، واختلفوا في تعيينهما، فقيل: هما أخوان من بني إسرائيل، وقيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة: أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة: أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقيل هما المذكوران في سورة الصافات في قوله: قال قائل منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾[1] (الصافات: 51).

(1) فتح القدير 3/ 355.

وهو خلاف لا يترتب عليه أية نتيجة تنال من الهدف الذي توخاه ضرب المثل، وهو توجيه الناس إلى الإيمان، والانتفاع بما يعكسه المثل من دروس وعظات؛ كما نرى في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: 25)، وقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: 21).

فسواء أكانت الشخصيتان المحوريتان في هذه القصة موجودتين حقيقة، أم موجودتين تقديرًا، فالذي لا يستطيع أحد إنكاره أنهما نموذجان متناقضان، موجودان، في كل أمة على مدار التاريخ، فهما انعكاس مجسد للإيمان والكفر: الإيمان بما فيه من طوابع القناعة، والرضى، والتسليم لله، والكفر بما فيه من كبر، وجشع، وجحود، وتنكر:

الرجل الأول وسع الله رزقه فهو صاحب جنتين متكاملتين من أعناب ونخيل وزرع، وهما مثمرتان تدران من الثمار الكثير والكثير بلا انقطاع؛ إذ إن ريهما مضمون بنهر جار بينهما، دون اعتماد على ماء المطر الذي لا يعرف متى نزوله.

وهذه النعمة الوافرة الوافية كانت توجب على صاحبها الإيمان بالله وشكره، ولكن أخذه الكبر والبطر والجحود والتباهي على خلق الله، وتدفعه هذه القيم الوضيعة الخسيسة إلى التحدث بمنطق الكافرين وهو يحاور صاحبه المؤمن..

- فيقول له: أنا بجنتي هذه أغنى منك، وأوسع ثراء، وأعز عشيرة ورهطًا.
- وهو ينكر القيامة والبعث والحساب.

وبناء على هذا الإنكار يرى أن جنته لن تعرف الفناء.

- وحتى على فرض قيام الساعة فإن الله - نظرًا لمجده العريض وقوته وثرائه في الدنيا - سيرزقه في الآخرة ما هو خير وأجمل من جنة الدنيا.

إنه منطق الكفر والكبر والغرور الذي تصدى له الرجل المؤمن في قوة ويقين:

- فيوبخه توبيخًا شديدًا بهذا الاستفهام الاستنكاري القارع الصاخ، مذكرًا إياه بأصله الأول آدم الذي خلقه الله من تراب، ويذكره بخلقه هو «من نطفة ثم سواك رجلًا»؟

- وخشية أن يظن صاحبه به شيئًا من الميل إلى الدنيا، والانبهار بما رأى من زينتها المتمثلة في الجنتين، يعلن إيمانه القوي بالله، وتوحيده إياه بلا ند أو شريك.
- ويذكره بأن الأمر كله لله، فما شاء الله كان، ولا قوة إلا بالله، فالعبد لا يستطيع أن يفعل شيئًا، أو يتركه إلا بتمكين الله، وإقداره وإعانته.
- وإيمانًا بهذه القدرة الربانية تتغير الأحوال وتتبدل:

فليس على الله بمستكثر أن يرزق هذا المؤمن الأقل «مالًا وولدًا» جنة خيرًا وأبقى من جنة هذا الكافر الجاحد.

وليس بمعجز لله أن يفني هذه الجنة بصواعق من السماء، ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي ترابًا أملس لا ينبت، ولا تثبت عليه قدم، أو يفنيها بحرمانها من السقيا بجعل ماء النهر غائرًا في أعماق الأرض، فلا يستطيع صاحب الجنتين رفعه لريهما.

ونزل أمر الله فأحيط بثمره، أي أهلك فلم يبق منه شيء، وأصبحت الجنة «خاوية على عروشها»، أي ساقطة على أعمدة الكرم التي كان يحمله عليها، وساقط من مبانيها ما كان عاليًا على ما كان خفيضًا.

ويأخذه الحزن والحسرة على ما أنفقه فيها من أموال، ويثوب إلى عقله، ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾.

وأمام قدرة الله تبطل كل قوة، فلم يجد من ينصره في محنته، وهو الذي يتباهى على المؤمن بأنه «أعز نفرًا»، وتبطل قوته الذاتية، فلم ينتصر بنفسه، وعجز وعجزت عشيرته ومعاونوه أن يمنعوا قدر الله بعقابه.

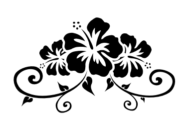
ومرة ثانية نعيش ملمحًا من ملامح القص القرآني، وهو ربط الغابر بالحاضر الذي كانت تعيشه قريش، فيروى أن أشراف قريش وكبراءها اجتمعوا وقالوا لرسول الله (ﷺ): إن أردت أن نؤمن بك، فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، أو تعين لهم وقتًا يجتمعون فيه عندك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام: 52)، فبين في هذه الآية أنه لا يجوز طردهم، بل

تجالسهم، وتوافقهم، وتعظم شأنهم، ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقم لهم في نظرك وزنًا سواء غابوا أو حضروا[1].

ويظهر أن محاولة الكفار قد تكررت بعد ذلك، فقد جاء قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله (ﷺ) وقالوا: نح هؤلاء الموالي الذين كان ريحهم ريح الضأن، وهم صهيب، وعمار، وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك، فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2] (الكهف: 28-29).

ثم يجيء ضرب المثل ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ...﴾ مرتبطًا معنويًا ونفسيًا بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ...﴾.

فموقف كبراء قريش من النبي (ﷺ) وفقراء المسلمين تكرار أو صورة أخرى من موقف صاحب الجنتين المبتلى بالنعمة من المؤمن الفقير، بجامع الكفر، والجحود، والغرور والكبر، وبجامع نزول العقاب في الدنيا والآخرة. فالقصة - كما يقول صاحب الظلال - «تضرب مثلًا للقيم الزائلة، والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس»[3].



---

(1) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب (المشتهر بالتفسير الكبير) 5/ 481.

(2) انظر القرطبي 5/ 4007، والكشاف 2/ 481.

(3) في ظلال القرآن 4/ 2270.

3 - قارون وفتنة المال والعلم

في المثالين السابقين رأينا صورتين للابتلاء بالمال، دون أن يحدد القرآن أسماء «المفتونين»؛ يستوي في ذلك الإخوة أصحاب الجنة، ومالك الجنتين الذي صرح بكفره، وجحوده، وبطره، ورفض توجيه صاحبه المؤمن الفقير ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، ولم ينفعه ندمه.

ونقف أمام مثال آخر أصرح وأصرخ من المثالين السابقين، شخصية تاريخية حدد القرآن اسمها، إنه قارون صاحب الكنوز الكثيرة الضخمة، وقد عرضت سورة القصص قصته في الآيات التالية:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (القصص: 76 - 83).

وفي سورة غافر ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ (غافر: 23 - 24).

كان قارون إسرائيليًّا من قوم موسى، وقيل هو ابن عمه، وقيل بل كان عمًّا لموسى، وقيل كان ابن خالته[1]. وهو خلاف لا يترتب عليه أي أثر، فالحقيقة المجمع عليها أنه كان إسرائيليًّا، وأنه كان بينه وبين موسى قرابة ظاهرة.

وثمة حقائق أخرى يجمع عليها المفسرون بالنظر إلى ملامحه الشخصية والخلقية والنفسية، ومنها:

1 - أنه كان حسن الصورة إلى أبعد حد، حتى إنه كان يلقب بالمنوّر.

2 - أنه كان غنيًّا غنى فاحشًا، فكان له من الكنوز والأموال ما لا يحصى، ولا يعد.

3 - أنه كان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، وأعلمهم بها.

4 - أنه لم يكن سليم العقيدة، نقي السريرة، فنافق، كما نافق السامري.

5 - أنه كان باغيًا ظالمًا لبني إسرائيل قومه، ويقال: إن فرعون أسند إليه إمارة على بني إسرائيل، فظلمهم ظلمًا فاحشًا، واستخف بهم، لكثرة ماله وولده، وخرج عن طاعة موسى، وكفر بالله، ونسب ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته[2].

6 - أنه كان متكبرًا، بطرًا، جاحدًا بأنعم الله عليه، ويرى أن ما عنده من كنوز الأرض يرجع إلى قدراته ومواهبه، لا إلى تقدير الله وقدرته، فهو الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

7 - أنه كان عنيدًا، لا يصغى لنصح الناصحين العقلاء، بل يتشبث برأيه على خطئه وخطله.

8 - أنه كان «مظهريًّا»، مقبلًا على الدنيا وزخارفها وبهرجها، لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب.

ومن حرصه على هذه المظهرية خروجه على قومه «في زينته». وقد تعددت

---

(1) الكشاف 3/ 190. وابن كثير 6/ 162. والقرطبي 6/ 5026.

(2) انظر الشوكاني: فتح القدير 4/ 229.

أقوال المفسرين في وصف هذه الزينة، فقيل: كان قد خرج في سبعين ألفًا من تبعه عليهم المعصفرات، وكان أول من صبغ له الثياب المعصفرة، قال السدي: مع ألف جوار بيض، على بغال بيضن بسروج من ذهب على قطف الأرجوان... وقال قتادة: خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر، منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر... وقال الكلبي: خرج في ثوب أخضر كان الله قد أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون...[1].

ولم يقم دليل واحد على صحة هذه التقديرات أو بعضها؛ لذا كان الفخر الرازي على حق في قوله: «أما قوله فخرج علي قومه في زينته، فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها، وليس في القرآن إلا هذا القدر[2]، فالأولى ترك هذه التقديرات لأنها متعارضة[3]، والحقيقة التي لا شك فيها أنه خرج في زينة مسرفة، غير معهودة في عصره، كان وراءها الغرور، والتكبر، والفخر، والمباهاة، وكل أولئك انبهر به كثير ممن شاهدوه».

كما تعددت الروايات في تقدير ثروته وأغلبها مغرق في المبالغة، في ذلك ما قيل من أن مفاتيح خزائنه كان يحملها ستون بغلًا لكل خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع، وكانت من جلود، قال أبو رزين: يكفي الكوفة مفتاح[4].

وهي رواية يرفضها من أوتي أثارة من عقل؛ لأنها تعني أن عدد هذه المفاتيح قد بلغ مئات الألوف، ويترتب على ذلك صعوبة - بل استحالة - التمييز بينها، ونسبة كل مفتاح إلى خزانته.

---

(1) القرطبي 6/ 5033.

(2) الفخر الرازي 6/ 459.

(3) السابق: الصفحة نفسها.

(4) الكشاف 3/ 190.

ولعل الأوفق ما روى عن ابن عباس والحسن من أن المفاتح «تحمل على نفس المال وهذا أبين، وعن الشبهة أبعد. قال ابن عباس: كانت خزائنه يحملها أربعون رجلًا أقوياء»[1].

وتعرض الآيات موقف الآخرين مما رأوا يوم الزينة:

1- فهناك المبهورون المأخوذون بما رأوا، وقد أشربت قلوبهم حب الدنيا، فدعوا أن يكون لهم مثل ما عند قارون. قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت، تمنوا مثل ما له رغبة في الدنيا.

وقيل هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة، ولا رغبوا فيها، وهم الكفار[2].

2- وهناك الذين أوتوا العلم من أحبار بني إسرائيل الذين تصدوا للفئة السابقة يبينون لهم ما في وجهتهم من خطأ، ويدلونهم على ما هو أصوب وأبقى، وأن «طريق الجنة هو الإيمان والعمل الصالح والصبر.

3- وكان هناك صوت الإيمان والتوجيه الرشيد من المؤمنين الصالحين على سبيل النصح والإرشاد أو من موسى، أو من موسى والمؤمنين من قومه[3].

ودارت التوجيهات بين أوامر ونواه:

- فنهوه عن الفرح... فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء والتعلق بالكنوز والابتهاج بالملك والاستحواز؛ لأن الله لا يحب الفرحين المأخوذين بكل ذلك.
- ونهوه عن الفساد وإرادة الفساد في الأرض بأية صورة من صوره؛ لأن الله لا يحب المفسدين.

---

(1) الفخر الرازي 6/ 457، ومفاتح جمع مفتح (بكسر الميم) وهو المفتاح أو جمع مفتح بفتح الميم وهو الخزانة.

(٢) القرطبي 6/ 5033.

(3) قال بعضهم: القوم هنا موسى، وهو جمع أريد به واحد، كقوله «الذين قال لهم الناس» وإنما هو نعيم بن مسعود (انظر القرطبي 6/ 5029)، ولكن منطوق الآية يتسع لأن يكون التوجيه صادرًا من موسى وصالحي قومه على فترة واحدة، أو فترات متعددة.

- ووجهوه إلى أن يكون متعلق القلب بالآخرة، قاصدًا بعمله وجه الله، آخذًا من الدنيا بحظه دون إفراط أو تفريط.
- وأرشدوه إلى الإحسان كما أحسن الله إليه؛ فهذا المال هبة من الله وإحسان، فليقابل الإحسان فيه إحسان التقبل، وإحسان التصرف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران[1].
- وبتبجح وجحود وبطر يعلن قارون أن ما امتلك من كنوز طائلة إنما جاء؛ لأنه صاحب علم لا يبارى فيه، فهو جدير بهذا التملك، ولا فضل لله فيه، فلا عجب أن يكون أكثر الناس مالًا؛ لأنه أكثر الناس علمًا... وينهار منطقه حين يبين السياق أنه لم ينتفع بهذا العلم في عمله، وسلوكه، وهو أقرأ الناس وأعلم الناس بالتوراة.. نعم كيف غاب عنه أن الله سبحانه وتعالى قد أهّل في الأزمان الغابرة أفرادًا وأممًا فاقوه في القوة... وفاقوه في الغنى. ولا خير في علم لم ينتفع به صاحبه، ولا خير في علم لم ينفع الآخرين.

وتظهر المفارقة الهائلة بين مثل هذا العلم الذي يطغى به صاحبه، وهو يقول ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، وبين العلم الرسالي النافع الذي نراه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

ويأتي أمر الله عقابًا قاصمًا مشهودًا .. تبتلع الأرض قارون وداره وما ملك من قوة ومال، فما من أحد يستطيع إنقاذه، ولا يستطيع أن ينقذ هو نفسه مما نزل به.

"وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، وردت الضربة القاضية إلى الله، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال، وكان هذا المشهد الأخير.. ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

(1) انظر: في ظلال القرآن 5/ 2711.

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة، وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله؛ فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب، ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف، إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء، وعلموا أن الكافرين لا يفلحون، وقارون لم يجهر بكلمة الكفر، ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين»[1].

وإذا كان هذا هو جزاء قارون وأمثاله ممن علوا في الأرض، وجحدوا أنعم الله، وإذا كان مثواهم النار يوم القيامة وبئس المصير، فهناك الصورة المقابلة التي تفتح الباب للتقوى والعمل الصالح لمن يريد حسن العاقبة ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

لقد عرضت سورة القصص قصة طاغيتين: هما فرعون، وقارون يجمع بينهما الكفر، والعصيان، والاستكبار، ويجمع بينهما «وحدة النهاية": فالأول ابتلعه اليم هو وجنوده: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص: 40).

أما الثاني ومن معه: فقد غيبتهم الأرض: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: 81).

وصورة هذا الطاغية المتكبر، المتباهي بماله، ليست بعيدة عن المجتمع الجاهلي؛ حيث بعث النبي (ﷺ)، وكان للتجارة وتثمير المال المكان الأول، وعرفت قريش برحلتيها التجاريتين كل عام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام.

---

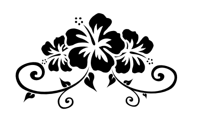
(1) في ظلال القرآن 5/ 2714.

وعرفت قريش من طغاة المال الوليد بن المغيرة الذي كان يلقب «بالوحيد». وكان يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس في العرب نظير، ولا لأبي نظير[1]. وقيل: إنه كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار، وقيل: أربعة آلاف دينار، وقيل: ألف دينار، وكان له من الأولاد ثلاثة عشر ولدًا، يحضرون بمكة معه لا يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم[2].

وعاش الوليد مشركًا بالله، كافرًا بنعمته عليه في المال والولد، وكان يقول: «إن كان محمد صادقًا، فما خلقت الجنة إلا لي»[3]، وهي كلمة تذكرنا بما قاله صاحب الجنة الكافر ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف: 36).

وتقوَّل على القرآن فزعم أنه سحر، وأنه ليس بكلام الله، فقضى الله بأن عاقبته ستكون سقر.

فصورة قارون وعاقبته إنما سيقت ليعتبر بها الوليد وأمثاله من طغاة المال في المجتمع الجاهلي، ثم المجتمعات البشرية على مدار العصور والأجيال، وليزداد المؤمنون بالله إيمانًا ويقينًا وثباتًا، ويتمسكوا بدينهم دين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.



(1) القرطبي: 8/ 6862.

(2) فتح القدير 5/ 405.

(3) السابق، الصفحة نفسها.

ثانيًا: الابتــلاء بالضــراء

1 - الابتــلاء في الولـد الوحـيد، إبراهيـم (عليه السلام)

ابتُلي أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالرؤيا، ووصفها الله تعالى بأنها البلاء المبين، أي الاختبار العظيم الذي يبين عن مدى مصداقية إبراهيم، ومدى استجابته لأمر الله. وبشأنها جاءت الآيات (99 - 107) في سورة الصافات ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وخلاصة القصة - كما جاءت في كتب التفسير - أن إبراهيم (عليه السلام) بعد خروجه من نار القوم سالمًا، قرر الهجرة قائلًا: «إني ذاهب إلى ربي سيهدين» إلى أرض غير أرض الكفر والعصيان، فنزل إلى بلاد الشام، ودعا ربه أن يرزقه أولادًا صالحين، فولدت له «هاجر» - وهي جارية تسراها - غلامًا من صفاته الحلم، والاتزان هو إسماعيل، فلما بلغ معه السعي؛ أي كبر وترعرع، صار يذهب مع أبيه، ويمشي معه، وهو في سن السابعة، أو تزيد، كانت الرؤيا، ورؤيا الأنبياء في المنام وحي، وقال إبراهيم لابنه: «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى»، قال «يا أبت، افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين»؛ أي سأصبر، وأحتسب ذلك عند الله (عز وجل).

وكان الاستسلام كاملًا لأمر الله، وقام إبراهيم وأمسك بابنه الوحيد، وتله للجبين، أي جعله على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه؛ ليكون أهون عليه، فلما همّ بذبحه، سمع نداء الله بأنه قد صدَّق الرؤيا، واستسلم لأمر الله

بها، وكان الجزاء ذبحًا أي كبشًا عظيمًا، ذبحه إبراهيم بدلًا من ذبح ولده، وأبقى الله على إبراهيم ثناء عاطرًا، وذكرًا حسنًا، فيمن جاء بعد إبراهيم من الأمم والشعوب[1].

وتأمّلُ هذا السياق الكريم يخلص بنا إلى قيم عليا من أخلاق النبوة وسجاياها:

فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الأمر منه تعالى لإبراهيم - بطريق الرؤيا، بذبح ابنه، وهو وحيده - بأنه بلاء مبين، أي اختبار عظيم؛ فذبح الأب لابنه - وخصوصًا إذا كان وحيده، وفي أرض غير أرضه، وهو من جارية ضعيفة، لا حول لها ولا طول - أمر كان يمكن أن يفجر في النفس صراعًا بين الاستجابة لأمر الله، وبين عاطفة الأبوة، أو ما يسميه علماء النفس «بغريزة الوالدية».

ولكن إبراهيم (عليه السلام) لم يسمح لمثل هذا الصراع أن يأخذ طريقًا إلى نفسه، وسارع إلى ابنه ليخبره بما رأى، وربما خشي إبراهيم أن تغلبه عاطفة الأبوة، فيأخذه شيء من التراجع عن ذبح ابنه إذا ما نظر إلى وجهه وعينيه، فتله للجبين، أي جعل وجهه إلى أسفل ليكون الذبح من قفاه.

ونرى كذلك أن إجابة إسماعيل (عليه السلام) تشي بطاقة من الإيمان، والوقار، والعقل لا تعهد عادة في من كان في مثل سنه[2]، فكان جوابه: «**يا أبت، افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين**». وهو - وإن كان جوابًا في مسألة محددة - أخذ صفة التعميم، بضرورة تنفيذ ما يأمر به الله، أيا كان موضوعه، يستوي في ذلك النفس، والمال، والولد.

وهو جواب يلتقي مع طبيعة «**الغلام الحليم**» الذي بشر به الله إبراهيم «**فبشرناه بغلام حليم**»، والحلم: هو الإنارة والعقل. والحلم: نقيض السفه[3]. والحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[4]، فكان «الإسلام» أي الاستسلام الكامل

(1) راجع بتفصيل: تفسير ابن كثير 7/ 16 - 22. وقصص الأنبياء لابن كثير 167 - 172.

(2) فقد كان في السابعة من عمره، ومن زاد في التقدير وصل بها إلى الثالثة عشرة.

(3) لسان العرب 1/ 980.

(4) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني 136.

من الأب وابنه: استسلام الأب وانقياده بامتثال أمر الله تعالى، واستسلام إسماعيل وانقياده بطاعة الله وطاعة أبيه، فحققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقيًا إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه، وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما.

والقصة تفرز كثيرًا من الدروس والعبر والقيم والتوجيهات منها:

1- ضرورة الامتثال لأمر الله والاستجابة له، وأخذ النفس به، وتقديمه على ما سواه، حتى لو كان في ذلك التضحية بالنفس، والولد، والأهل، والمال ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام 162 - 163).

2- الابتلاء يأتي على قدر الإيمان، وحينما سئل رسول الله (ﷺ) «أيُّ الناسِ أشدُّ بلاء؟ قال: الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل...»[1].

3- من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويجعل له اليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة؛ فقد فدى الله (سبحانه وتعالى) إسماعيل بذبح عظيم، وبقي لإبراهيم وإسماعيل بعد ذلك أجر الاستجابة والطاعة بتسليم كامل، ودون إبطاء.

4 - "على الآباء أن يحسنوا تربية أبنائهم، ويقوموا بحقوقهم في الصغر، حتى يقوموا بواجباتهم نحوهم ونحو أمتهم إذا أصبحوا رجالًا»[2]، فما كان إسماعيل عليه السلام ليصل إلى هذه الدرجة من الاستجابة لله وطاعته – وهي تكلفة حياته – إلا بحسن تربيته وتوجيهه، وحرص أبيه على غرس قيم الإيمان، والتقوى، والنقاء في نفسه من صغره.

5 - المؤمن مطالب بإتقان عمله وإحسانه، متجنبًا العوامل التي قد تصرفه عن هذا العمل، أو تنقص من إتقانه، وقد رأينا إبراهيم عليه السلام قد تلّ ابنه للجبين،

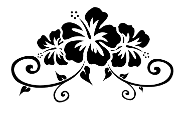
---

(1) انظر الحديث بتمامه وتخريجه في الفصل الثاني من هذا البحث، ص: 51 .

(2) د. محمد أبو فارس: الابتلاء والمحن في الدعوات 33.

متفاديًا نظراته حتى لا يؤثر ذلك في نفسه، وتأخذه شفقة الأبوة فيتراجع عن الاستجابة لأمر الله، أو لا يذبحه إلى النهاية، والله (سبحانه وتعالى) - وله المثل الأعلى - أتقن كل شيء خلقه ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: 88). وعن شداد بن أوس (رضي الله عنه) قال ثنتان حفظتُهما عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[1].

6 - سرعة الاستجابة والامتثال لتوجيهات أصحاب الفضل، والمشهود لهم بالعلم والدين - وخصوصًا في مجال الدعوة، والسلوك، بعيدًا عن التماري واللجج في الجدل - دليل على كمال الإيمان، ومحقق مصلحة العمل، وجالب - للمستجيب الممتثل - التوفيق في الدنيا والآخرة.



(1) أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح. باب: الأمر بإحسان الذبح... حديث 54 - 4/622.
وأخرجه كذلك: أبو داود. كتاب الضحايا - باب النهي أن تصبر البهائم. حديث 2815 - 3/100.
والترمذي: في كتاب الديات (14) باب: ما جاء النهي عن المثلة (14). حديث 1409 - 4/22. وقال حديث حسن صحيح.
والنسائي: كتاب الصيد والذبائح: حديث 4405 - 7/227، (4411، 4412، 4413) - 7/ 229، 4414 - 7/ 230.
وأحمد بإسناد صحيح. حديث 17049 - 13/ 268، 17052 - 13/ 269، 17064 - 13/ 273، 17074 - 13/ 276.

2- الابتلاء بالمرض: أيوب (عليه السلام)

لم يعالج القرآن الكريم قصة أيوب تفصيلًا، ولكنه اكتفى بعرض قصة ابتلائه بالضراء على سبيل الإجمال لا التفصيل، وذلك في آيتين من سورة الأنبياء، وأربع آيات من سورة ص.

ففي سورة الأنبياء:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء: 83-84).

وفي سورة (ص):

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: 41-44).

وقطع القرآن أنه نبي من أنبياء الله فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1] (النساء: 163).

وأيوب (عليه السلام) أحد الذين اصطفاهم الله بالنبوة، وآتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع من الأموال والأولاد، وكان شاكرًا لأنعم الله، مواسيًا لعباد الله برًّا رحيمًا[2].

ويقال: إنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه في أمر، فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع كان له، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضر في جسمه

(1) وارجع كذلك إلى الآية 84 من الأنعام وارجع إلى قصة أيوب (عليه السلام) مفصلة في كتاب ابن كثير «قصص الأنبياء» 281- 288.

(2) القرطبي 7/5652.

حتى تناثر لحمه، وتدود جسمه، حتى أخرجه أهل قريته خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه[1].

وفي مظاهر مرض أيوب كثرت الأقوال، حتى رصد منها القرطبي خمسة عشر قولا[2]، وأغلب هذه الروايات لا يعتد بها، ولا دليلاً قويًا على صحتها، ولا يهضمها عقل، وطوابع الإسرائيليات واضحة فيها، من ذلك - وهو القول السابع: «أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها في موضعها، فعقرته فصاح: «مسَّنِيَ الضر» فقيل: «أعلينا تتصبر؟»[3].

والقول السابع عشر: أن دودة سقطت من جسده، فطلبها ليردها إلى موضعها، فلم يجدها، فقال: «مسني الضر»، لما فقد من أجر ألم الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرًا إلى وقت العافية[4]. وهو قول غريب ظاهر الوهن؛ لأنه يعني أن الله كان يثيب نبيه أيوب طبقًا لعدد الدود الذي ينهش بدمه! ومن عجب أن يستحسن القرطبي هذا القول فشهد بأنه «حسن إلا أنه يحتاج إلى سند»[5].

والأمر الذي لا يمكن الخلاف عليه هو أن أيوب أصيب بمرض خطير، بشع الآثار، وربما لم يكن معهودًا في وقته ومجتمعه، وإن ذكر ابن كثير أنه «الجذام»[6]، وأن هذا المرض ظل يلازمه مدة طويلة بلغت عدة سنوات، وارتفعت - في قول - إلى ثمانية عشر عامًا، زيادة على إصابته في ماله، وولده، وجفاء أهل قريته له.

ولكنه ظل صابرًا محتسبًا، ويتجه بدعائه إلى الله، «وهو في دعائه لا يزيد على وصف حاله «أني مسني الضر» ووصف ربه بصفة «وأنت أرحم الراحمين»، ثم لا يدعو

---

(1) السابق، 5/ 4363.

(2) القرطبي 5/ 4363 - 4365. وقد زاد القرطبي عليها قولين فبلغت سبعة عشر قولًا.

(3) السابق 5/ 4363.

(4) السابق 5/ 4365.

(5) السابق، الصفحة نفسها.

(6) تفسير ابن كثير 7/ 46.

بتغيير حاله صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه تأدبًا معه وتوقيرًا، فهو نموذج للعبد الصابر، لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه اطمئنانًا إلى علمه بالحال، وغناه عن السؤال[1].

قال العلماء: ولم يكن قوله «مسني الضر» جزعًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ بل كان ذلك دعاء منه، والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسًا غاصًا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاء، بيانه ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾.

والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء، فاستحسنوه، وارتضوه[2].

ونلاحظ أن دعاء أيوب ربه اختلفت صيغته ما بين سورتي (الأنبياء) و (ص).

ففي سورة الأنبياء:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وفي سورة (ص):

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

والضر: هو كل ما يصيب الإنسان من أذى، فيتسع للمرض، وفقد المال، والأهل والولد.

والنُصب: المشقة.

والعذاب: الألم الشديد.

---

(1) في ظلال القرآن 4/ 2392.

(2) القرطبي 5/ 4366.

"ونسب ذلك إلى الشيطان - وإن كانت الأشياء كلها من الله - تأدبًا معه تعالى»[1].

واستجاب الله لأيوب بعد هذا البلاء الطويل، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عينًا، وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان فيه بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عينًا أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾[2].

وعوضه الله عما فقد من أهل وولد، ومتعه بصحته، وبماله، وقواه، حتى كثر نسله، وصار أهله ضعف ما كان، وأضعاف ذلك[3]. إنها رحمة منه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي تذكيرًا للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء وصبره عليه ومحنته له، وهو أفضل أهل زمانه، وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيهًا لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر[4].

فهذه الهبة جاءت رحمة وتذكيرًا للعابدين، وكذلك تذكيرًا «لأولي الألباب»، وهم الذين يتفكرون، ويحسنون التفكير والاتعاظ، فهم إذا سمعوا بما أنعم الله به على أيوب لصبره، رغَّبهم في الصبر على البلاء، وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم[5].

وقد أثنى الله على أيوب إذ وجده في ابتلائه صابرًا، ووصفه كذلك بأنه (أواب)؛ أي رجاع إلى الله في كل أموره، فهو الملجأ وهو الملاذ.

وهناك مخرج آخر يسره الله لأيوب في مسألة فردية قد تبدو عابرة ولكن لها دلالتها القوية النافعة، وتتلخص في أن أيوب كان قد غضب على زوجته، وهو في

(1) تفسير الجلالين 602 - وانظر كذلك الكشاف: 3/ 376.

(2) تفسير ابن كثير: 7/ 47.

(3) الفخر الرازي: 7/ 201.

(4) القرطبي: 5/ 4367.

(5) الكشاف: 3/ 377.

شدة مرضه، لتصرف أثاره، فحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، ولكن الله (سبحانه وتعالى) أفتاه أن يأخذ «ضغثًا» - أي حزمة - من حشيش يابس بها مائة عود، أو شمراخًا فيه مائة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة ففعل، وبذلك «برت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى، وأناب إليه، ولهذا قال (جل وعلا) ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه، ومدحه بأنه رجاع منيب، ولهذا قال جل جلاله: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 2-3).

واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها، وقد أخذوها بمقتضاها[1].

ولقد مضت قصة أيوب، ولم تزل خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما عليها، وأصبح «صبر أيوب» هو المثل الأعلى في الصبر على ما يصاب به الإنسان من ضراء.

وقد قدم الله (سبحانه وتعالى) هذه القصة في سياق قصص أخرى تسلية لمحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، وتقوية لعزيمته في مواجهة الكفار الذين عاشوا «في عزة وشقاق»، وتقولوا عليه واتهموه بأنه «ساحر كذاب» وشككوا في أن يكون القرآن منزلاً من عند الله.

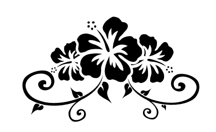
وتحرص الآيات على شد انتباه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى هذه المواقف بالأفعال التي تدل على ذلك، وتربط الماضي بالحاضر الذي يعيشه النبي والمجتمع القرشي، كما ترى في سورة (ص).

- ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: 17).

(1) ابن كثير: 7/ 48. وفي الفقه الإسلامي باب واسع اسمه (الحيل). انظر الموسوعة الفقهية - (الكويت). 18/ 328-334.

- ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ (ص: 21).
- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ (ص: 41).
- ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (ص: 45).
- ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ (ص: 48).

والتذكير من الله لنبيه محمد (ﷺ) - كما أشرنا أكثر من مرة - لم يأت للتعريف، وتلقين معلومات تاريخية، ولكنه جاء للتعليم والتربية، والاقتداء والتأسي، والوفاء عقديًا وعمليًا للقيم العليا، والخلق السوي، وهو القدوة المثالية، والأسوة الحسنة للأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.



3 - الابتــلاء بالمرأة والسجــن: يوســف (عليه السلام)

تعرض يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) لمحن ثلاث: محنة إلقائه في الجب، وهو طفل صغير، وتعريض حياته للخطر، وتولى كبر ذلك إخوته الذين كانوا يحسدونه لمكانته عند أبيه، وحبه الشديد له، وتعلقه به، ومحنة تعرضه لكيد امرأة العزيز، ومحنة السجن لسنوات طويلة.

ونجاه الله من كيد إخوته ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ (يوسف: 19 - 20).

وطلب عزيز مصر من زوجته أن «تكرم مثواه»، وقد أنعم على يوسف - الذي بلغ أشده في قصر العزيز - بنعمتين: الأولى حسية: وهي جمال الخلقة، حتى ضرب المثل بهذا الجمال على مدار التاريخ، والثانية عقلية: وهي أن الله آتاه من لدنه الحكمة والعلم، وقد ظهرت هذه النعمة فيما بعد في القدرة على تعبير الرؤيا، وحسن السياسة، وتدبير أمور الناس في المعاش.

وكانت المحنة الثانية، والابتلاء الأول الذي تعرض له بعد أن بلغ أشده، ونضجت فيه مظاهر الرجولة، وحيوية الشباب: تعرض امرأة العزيز له ومراودته لارتكاب الفحشاء معها ﴿... وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (يوسف: 23 - 29).

إنه التصميم الفاحش، والإصرار المخزى من امرأة العزيز على إرواء الغريزة البهيمية التي تتحرك، وتضطرم في أعماقها، وقد أخذت للأمر عدته، فغلقت الأبواب، وصارحت يوسف بأنه لا مخلص له منها، وحدث الهم منها على اليقين بدليل إغلاقها الأبواب، وجذبه من قميصه حين حاول الفرار حتى شقته من دبر، وإسراعها إلى الباب تمنعه الخروج حتى تحقق ما تبغي، وحتى لا يفتضح أمرها. وفي همه بها أقوال: فقيل هم بضربها، وقيل تمناها زوجة، وقيل هم بها لولا أن رأى برهان ربه؛ أي فلم يهم بها[1].

وتعددت الأقوال كذلك في البرهان الذي رآه فقيل رأى صورة أبيه عاضًا على إصبعه بفمه، وقيل ضرب في صدر يوسف، وقيل رأى خيال سيده، وقيل نظر إلى السقف فإذا آيات كتبت على الحائط منها ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: 32)[2].

ويقول ابن كثير: «ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من المجتبين المطهرين، المختارين، المصطفين، الأخيار[3].

ثم كانت المفاجأة أن تجد زوجها عند الباب، فتقذف يوسف بدائها، وتهيج عليه زوجها وتخاطبه: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف: 25).

ومن عجب أن تسأل وتقترح هي نوع العقاب وتحصره في اثنين: إما السجن وإما العذاب؛ أي الضرب الأليم. ومثل هذه الجريمة - ارتكاب الفحشاء أو محاولته

(1) انظر في هذه الأقوال: تفسير ابن كثير 4/ 166.
(2) السابق 167.
(3) السابق الصفحة نفسها.

ارتكابها مع امرأة في مثل مركزها وهي زوجة عزيز مصر - يجب أن يكون جزاؤها الموت. «ولكنها امرأة تعشق فهي تخشى على يوسف الرد فتشير بالعقاب المأمون: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، فما زال لها فيه مطمع، وهي عاجزة عن أن تخلعه من قلبها.

ويدافع يوسف عن نفسه بأنها هي التي راودته عن نفسه، تأتي شهادة واحد من أهل امرأة العزيز بما يقود إلى الحكم الحاسم اعتمادًا على قرينة مشهودة هي قميص يوسف: إن كان قُدّ من دبر، فهذا يعني محاولتها شدة إليها، وهو يولى منها فرارًا، أما إن كان قد قد من قبل، فهذا يعني أنه حاول اغتصابها، والعدوان على عفافها، فحاولت دفعه عنها، وظهر في جلاء براءة يوسف وكذب امرأة العزيز.

ويقول الفخر الرازي: إن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة قد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية: فيوسف ادعى البراءة من الذنب بقوله عليه السلام ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، وقوله عليه السلام ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

والمرأة قد اعترفت بذلك، فقالت للنسوة ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وأيضًا قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وأقر زوج المرأة بذلك في قوله ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ...﴾.

وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته فلأنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: 82، 83)، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف من

(1) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن 206.

المخلصين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فكان هذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى[1].

وسرى الخبر في المدينة كلها، وخصوصًا بين النساء ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (يوسف: 30).

واستدعت امرأة العزيز هؤلاء النسوة إلى قصرها، وقدمت لهن نوعًا من الفاكهة، وأمرت يوسف بالخروج عليهن، فذهلن عن أنفسهن من جماله، حتى جرحن أيديهن بسكاكين الفاكهة، حتى تقيم الحجة عليهن بأنها لا تلام حين تقع أسيرة لهذا الحسن.

وفي تبجح تعلن على رؤوسهن أنها ما زالت مصممة على تحقيق ما تصبوا إليه، أو هو السجن والإذلال!

وخرج يوسف من هذه المحنة وهذا الابتلاء طاهرًا نقي الذيل، ليبدأ ابتلاء جديدًا آثره على الفحشاء فقال بلسان الحال ولسان المقال ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ (يوسف: 33).

وسُجن يوسف حتى تموت الشائعة التي سرت في المدينة مسرى النار في الهشيم، ويوهموا الناس أنهم ما سجنوه إلا لأنه راود امرأة العزيز عن نفسها.

وفي السجن كان يوسف على مستوى النبوة، والعقل، والحكمة، فتلقى هذا البلاء بصبر وجلد، ولم يكن «من الصاغرين» كما تمنت امرأة العزيز.

وفي السجن دعا صاحبيه إلى الإيمان بالله؛ فهو الواحد القهار، أما ما يعبدونه فأشياء متفرقة من أصنام وأوثان، يعبدونها وهم صانعوها، وتلقوا عبادتها عن آبائهم دون عقل أو حجة وبرهان. «ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ودينه هو الدين «القيم»؛ أي المستقيم الذي

(١) الفخر الرازي 5/118.

أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه[1].

إنه صوت النبوة الهادية، يرفعه نبي مرسل بأمر الله في كل مكان يحل به، دون أن تشغله محنة السجن أو غيرها عن أداء رسالته التي كلف بها، وائتمن عليها.

ثم وظف قدرته في الفراسة، وتعبير الرؤيا، وهو في السجن، وعبر رؤيا صاحبيه في السجن: فالساقي يعود إلى مكانته الأولى «يسقي ربه - أي سيده - خمرًا»، أما طباخ الملك فيصلب، فتأكل الطير من رأسه. ووصى يوسف الساقي أن يذكر قصته، ويشرح قضيته للملك، ولكن الشيطان أنساه ذلك، فلبث في السن يضع سنين، إلى أن كانت رؤيا الملك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف: 43). وعجز رجال الملك عن تفسير الرؤيا، فيذكر الساقي نبي الله يوسف، وينطلق إليه في السجن فيعبر له الرؤيا، فيطلب الملك ليراه، وهنا يظهر الرجل الحصيف: لقد دخل السجن ظلمًا، وإن حوله للغطًا، وإنه لن يأمن إذا خرج أن يرد إلى السجن كما دخل إليه أول مرة، فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: 50)، ويسألهن الملك، فيجبن بالحقيقة، وترى امرأة العزيز أن تبرئه أيضًا ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (يوسف: 51).

فإذا رأى أنس الملك به، وارتياحه لتأويله، وسمع منه قوله ﴿... إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: 54). لم يدع الفرصة تذهب، بل قال ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: 55)، فيجاب إلى طلبه في أنسب الظروف. ويدل تصرف يوسف في سني الخصب والجدب على مهارة واضحة في الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف على المالية والتموين أربع عشرة سنة، لا على تموين مصر وحدها، ولكن على تموين البلاد

(1) انظر ابن كثير 4/ 171.

القريبة المجاورة التي أجدبت كذلك، وجاءت مصر تستجدي الخبز والحياة سبع سنين[1].

وتحولت محن يوسف إلى منن ونعم من الله، وأحضر أبويه وأهله من البادية إلى مصر، من أرض الجدب والفقر والجوع إلى أرض الخصوبة والغنى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: 100 - 101).

إن الابتلاء الذي تعرض له يوسف في صورتيه: فتنة المرأة، ومحنة السجن، وموقف يوسف من هذين الابتلاءين في مراحلهما المختلفة، كل أولئك يعكس قيمًا، ودروسًا، وعبرًا خالدة على مدار التاريخ، وعلى المسلم الذي يعرض له مثل ذلك أن يتأسى بيوسف عليه السلام. ومن ذلك:

1 - أن يستعيذ الإنسان بربه ويذكره دائمًا إذا ما تعرض لفتنة.

2 - أن يرعى الأمانة في التعامل مع من أحسن إليه، ومع أهله في الحضور والغياب على سواء.

3 - أن يبذل أقصى طاقاته في التصدي للفتنة، والتخلص مما يعرضه لغضب الله.

4 - أن يتحلى بالصبر، ويتحمل العذاب، ليتفادى الوقوع في الإثم، والمنكر، والبغي، والفحشاء.

5 - أن يستغل كل طاقاته التي أنعم الله بها عليه: العلمية، والعقلية، والروحية، والجسدية لينتفع بها، وينفع بها عباد الله على مستوى مجتمعه، ومستوى المجتمع الإنساني كله.

---

(1) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن 207 - 208، وانظر: في ظلال القرآن 4/ 1987 - 1996

6- أن يجعل الدعوة إلى الله، وإلى دينه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر همه الأكبر في السراء والضراء والمنشط والمكره.

7- أن يعالج الأمور بحكمة وأناة، مستخدمًا الحجج والبراهين في الحوار لإقناع الآخرين، وتوجيههم إلى الخير.

8- أن يعتز بنفسه، ويحرص على كرامته في استعلاء إيماني ويقين مكين، حتى لو كان في هذا الاعتزاز إطالة لمحنته، ومزيد من الأذى[1].

9- أن يُرجع كل ما رزقه الله من نعم في العقل والجسم والمال والولد إلى الله، فهو ولي النعم، ويشكره على ما أنعم به عليه[2].

10- أن يعتز بما يملكه من مواهب وقدرات، ويصرح بذلك إذا كان في ذلك مصلحة، مع البعد عن الكبرياء والغرور[3].

11 - أن يتوخى اختيار العمل المناسب له بناء على نوعية القدرات والإمكانات التي يملكها، حتى يتمكن من أداء العمل، وتثميره على أحسن الوجوه.



(1) كما رأينا في رفض يوسف (عليه السلام) أمر الملك بالخروج من السجن، والمثول أمامه، واشترط أن يتبنى الملك قضيته بنفسه، فيسأل امرأة العزيز ونساء المدينة عن الحقيقة. وفعل الملك، وأكد الجميع براءته صراحة.

(2) فيوسف يقول لصاحبي السجن «ذلكما مما علمني ربي»، «ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس».

(3) كما نجد في قول يوسف للملك ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: 55).

4 - الابتـلاء في الـديـن

المؤمنون وأصـحاب الأخـدود

يقول تعالى في سورة البروج (1 - 10):

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

تعرض الآيات السابقة - في إيجاز - لمحنة عاتية نزلت بالمؤمنين قبل عهد الرسول محمد (ﷺ).. وعوقب هؤلاء المؤمنون بالقتل حرقًا في أخدود كبير مليء بالنار. وأصحاب الأخدود هم الكفرة الذين لم يكتفوا بحرق المؤمنين، ولكنهم حرصوا على القعود على حوافّ الأخدود؛ ليسعدوا، ويمتعوا أنظارهم بأجساد المؤمنين التي تشويها النيران، ولا ذنب لهم إلا أنهم أصروا على الإيمان «بالله العزيز الحميد»، لذلك لعنهم الله (سبحانه وتعالى)، وأقسم أنهم ملعونون بقوله «قتل»، قال ابن عباس: «كل شيء في القرآن (قتل) فهو لعن»[1].

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟:

- فعن علي: أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود، فقذف فيه من أنكر عليه منهم.
- وعنه: أنهم كانوا من أهل الحبشة[2].

---

(1) القرطبي 8/ 7077، كما نرى في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ (الذاريات 10، 11)، وقوله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (المدثر: 18: 20)، وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: 17).

(2) تفسير ابن كثير 8/ 207، وانظر كذلك الفخر الرازي 8/ 367، 368.

ونقل ابن إسحاق رواية طويلة عن قصة الأخدود وأهله، تتلخص في أن أهل نجران لما تركوا عبادة الأوثان وآمنوا بالله الواحد لا شريك له على يد رجل يسمى عبد الله بن الثامر، سار إليهم الملك ذو نواس الحميري، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك والقتل، فاختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود، فحرق من حرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل به، حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا[1].

ومهما اختلفت الروايات في تحديد موقع هذه المحنة وتاريخها وأسماء من تولى كبرها، فإنها جميعًا تلتقي في أن هناك بغاة طغاة تسلطوا على فئة من المؤمنين بالله، وحاولوا بالترهيب أن يجبروهم على التخلي عن عقيدتهم، وأنهم أبوا، فكان نصيبهم القتل بإلقائهم في نار هائلة.

كانت هذه هي الخطوط الأساسية للمحنة، وقد أجمعت عليها - كما ألمحت - كل الروايات.

"والحكمة من عرض قصة أصحاب الأخدود واضحة، فقد أعلم الله (ﷻ) المؤمنين من أمة محمد في هذه الآيات. ما كان يلقاه من وجد قِبَلَهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي (ﷺ) قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى، والآلام، والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره، وتصلبه في الحق، وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه، وعظم صبره، وكذلك الراهب، صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى، ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا في دينهم[2].

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام 1/ 34، 35.

(2) القرطبي 8/ 7084، عرضنا لقصة «الغلام والراهب» في حديثنا عن الابتلاء في السنة، وقد عرضتها أغلب كتب التفسير: ابن كثير 8/ 208، الطبري 15/ 167 - 169، القرطبي 8/ 7078، فتح القدير 5/ 524.

"إنها روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض، فقد كانت في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟[1].

وبعد عرض مشهد المحنة العاتية: محنة الأخدود التي انتصر فيها الإيمان على الكفر، يأتي حكم رباني قاطع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، ويحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك، وهذا أولى لأن اللفظ عام، والحكم عام؛ فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل»[2].

"وينص الحكم على «الحريق» وهو مفهوم من عذاب جهنم... ليكون مقابلًا للحريق في الأخدود، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث، ولكن أين حريق من حريق في شدته أو في مدته؟ وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم، ومع حريق الآخرة غضب الله والارتكاس الهابط الذميم»[3].



(1) في ظلال القرآن 6/ 3874.

(2) انظر: الفخر الرازي 8/ 370.

(3) في ظلال القرآن 6/ 3874.

ثالثًا: الابتلاء بالآيات:

ثمود وناقة صالح

بعث الله نبيه صالحًا إلى «ثمود»، وهم قبيلة مشهورة، يقال لها: ثمود باسم جدهم «ثمود» أخي جديس، وهما ابنا عاثر بن إرَم بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العاربة، يعبدون الأصنام، ويسكنون «الحجر» الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله (ﷺ) وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين[1]، وعن قصتهم يقول تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2] (الأعراف: 73- 79).

---

(1) الآية لغة: العلامة والأمارة والعبرة (القاموس المحيط 1628)، وهي مشتقة من التأيي، وهو التثبت والإقامة على الشيء (الراغب: المفردات ٤١)، وفي الموضوع: راجع قصص الأنبياء لابن كثير 120- 133، وقصص الأنبياء للنجار 58- 69.

(2) وارجع كذلك إلى سورة هود 61- 68، والشعراء 141- 159، والنمل 45- 53، والقمر 23- 31، والشمس 11- 15.

وخلاصة القصة التي يمثل الابتلاء محورها الأساسي: أن صالحًا دعا قومه إلى عبادة الله، وتوحيده، وترك عبادة الأوثان، فسألوه أن يأتي بآية تكون دليلًا على صدق نبوته ودعوته، وكانت الآية خروج ناقة من الجبل، وطلب منهم صالح أن يتركوها ترعى، ولا يمسوها بسوء وإلا نزل بهم عذاب أليم فقد جعلها الله ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، ويقال: إن الناقة كانت ترعى، وتأتي إلى ماء القوم فتشربه كله، ويتحول الماء في بطنها إلى لبن خالص، يحلبونه، ويشربون منه ما شاؤوا... فهي إذن ناقة خارقة ليست ككل النوق؛ لأنها (**ناقة الله**).

وذكرهم صالح بفضل الله عليهم، وباستخلاف الله لهم بعد عاد، فأبى القوم إلا الكفر والعصيان، وأخذوا يشككون القلة المؤمنة في دعوة صالح وفي أنه مرسل من عند الله، وكانت سقطتهم الكبرى قيام بعضهم بعقر الناقة... ناقة الله... الآية البينة التي خلقها الله ابتلاءً، وفتنة لهم، ويستوي أن يكون العاقر واحدًا، أو أكثر؛ لأن هذا الجرم الآثم لم يرتكب إلا بموافقة القبيلة، وبمرأى منها؛ لذا نسب العمل إليهم جميعًا ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: 77).

فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

- منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.
- ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين: أحدهما الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود: 64) وفي آية: ﴿عَظِيمٌ﴾ (الشعراء: 156). وفي الأخرى: ﴿أَلِيمٌ﴾ (الأعراف: 73)، والكل حق، والثاني: استعجلهم على ذلك.

- ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم[1].
- عقر الناقة، العتو، استعجال العذاب.. إنه التبجح الذي يصاحب المعصية، ويعبر عن عصيانهم بقوله «عتوا» لإبراز سمة التبجح فيها، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها، الذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب، والاستهتار بالنذير، ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة، ولا يفصل كذلك ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (الأعراف: 78)، والرجفة والجثوم جزاء مقابل للعتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف! وما أجدر المعتدي أن يعجز جزاء وفاقًا في المصير! وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير.

ويدعهم السياق على هيئتهم «جاثمين»، ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾، إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب، وهكذا تطوى صفحة من صحائف المكذبين، ويحقق النذير بعد التذكير على المستهزئين»[2].

ويقول الله (ﷻ): ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأٓيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: 59)، فالآيات ها هنا قيل إشارة إلى الجراد والقمّل، والضفادع، ونحوها من الآيات التي أرسلت إلى الأمم المتقدمة، فنبه أن ذلك إنما يفعل بمن يفعله، وذلك أخس المنازل للمأمورين؛ فإن الإنسان

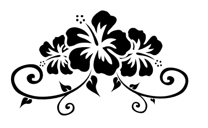
---

(1) ابن كثير: قصص الأنبياء 129.

(2) في ظلال القرآن 3/ 1314.

يتحرى فعل الخير لأحد ثلاثة أشياء: إما أن يتحراه لرغبة أو رهبة، وهو أدنى منزلة، وإما أن يتحراه لطلب محمدة، وإما أن يتحراه للفضيلة، وهي أن يكون ذلك الشيء في نفسه فاضلًا، وذلك أشرف المنازل، فلما كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، رفعهم عن هذه المنزلة، ونبه أنه لا يعمهم بالعذاب، وإن كانت الجهلة منهم كانوا يقولون: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1] (الأنفال: 32).

لذلك نهى رسول الله (ﷺ) المسلمين عن طلب الآيات: فعن جابر بن عبد الله قال: لما مر رسول الله (ﷺ) بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قومُ صالح فكانت – يعني الناقة – تردُ من هذا الفج، وتُصدرُ من هذا الفج فعَتَوا عن أمرِ ربِّهم فعقروها، وكانت تشرب ماءَهم يومًا، ويشربون لبنَها يومًا فعقروها، فأخذتهم صيحة أهْمَد الله بها مَنْ تحت أديم السماء مِنْهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله، فقالوا من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رِغال، فلَما خَرَج من الحرم أصابَه ما أصاب قومَه[2]».



(1) الراغب: المفردات 42.

(2) ابن كثير: 3/ 269.

وعلق ابن كثير بقوله: وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم.

والحديث أخرجه أحمد في مسنده: 14092 بإسناد صحيح 11/ 370.

والحاكم في المستدرك 3248 – 3251 وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال على شرط البخاري ومسلم.

وأبو رغال اسمه زيد بن خلف كان عبدًا لصالح (عليه السلام)، فلما خالف عن أمره لعنه فنزلت به قارعة من السماء. وقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس. (لسان العرب 3/ 1682).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

من صــــور الابتـــلاء

في الأمـــة الإســـلامية

1 - حـــديث الإفـك

تيقن المنافقون أن القضاء على الإسلام وأهله لا يمكن باستخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حربًا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول (ﷺ) أول هدف لهذه الدعاية، ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين، تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول[1].

من ذلك تقولهم على النبي (ﷺ) - بعد أن تزوج زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة - بزعم أن النبي تزوج مطلقة متبناه الذي هو بمثابة ابنه، كما أن هذه هي الزوجة الخامسة، فهو زواج غير صحيح؛ لأن الإسلام لم يكن يسمح بالزواج بأكثر من أربع، وأثرت هذه الدعاية في نفوس كثير من الضعفاء قبل أن تنزل آيات منها: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾[2] (الأحزاب: 4).

وبعد انتصار المسلمين في غزوة بني المصطلق وقع خلاف بين أجير لعمر بن الخطاب وأحد الأنصار، حاول عبد الله بن أبي أن يستثمره، ويشعلها فتنة، ولكن الله أخزاه، وافتضح أمره، وزادت النقمة عليه حتى من أقرب الناس إليه وهو ابنه الذي كان حسن الإسلام حتى عرض على رسول الله (ﷺ) أن يقتله بيده[3].

---

(1) صفي الدين المباركفوري: الرحيق المختوم 318. وانظر لعبد الحميد السحيباني: الفتنة وموقف المسلم منها 137.

(2) انظر الرحيق المختوم 318. والواحدي: أسباب النزول 292.

(3) انظر: سيرة ابن هشام 2/ 289 - 292. وقد فصلنا مكائد المنافقين في بحثنا وسائل أعداء الإسلام في التضليل. (مخطوط).

ولكن المنافقين - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول - لم يرعَوَوا، ولم يتراجعوا بعد هذا الإخفاق الذريع، فاستمرءوا التآمر وحرب الدعاية الخسيسة، وكان المقصود بها هذه المرة رسول الله (ﷺ) في أحب زوجاته إليه **عائشة بنت أبي بكر** (رضي الله عنها) فكان حديث الإفك، وخلاصته[1]:

- أقرع النبي (ﷺ) بين نسائه، وهو خارج إلى غزوة بني المصطلق، فخرج فيها سهم عائشة، وبعد الانتهاء من الغزوة والدنو من المدينة افتقدت عائشة عقدًا لها، فرجعت تبحث عنه، وفي غيبتها رحل الرجال بهودجها، وهم يعتقدون أنها بداخله.
- فلما عثرت على عقدها، وعادت إلى الموقع الذي كان فيه هودجها، وجدت أن الجيش قد رحل، فأقامت مكانها، وغلبها النعاس، فعثر عليها صفوان بن المعطل السلمي، فاسترجع، وأركبها ناقته، وعاد بها إلى المدينة.
- سنحت الفرصة لعبد الله بن أبي رأس المنافقين ليسجل «نصرًا» يعوضه عن إخفاق مؤامرته في الإيقاع بين الأنصار والمهاجرين في غزوة بني المصطلق، فتولى كبر حديث الإفك، وأخذ يشيع أنها «**ما نجت من صفوان، ولا نجا صفوان منها**» **وكان يقول** «**امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها**»[2].

---

(1) جاء الحديث مفصلًا على لسان عائشة (رضي الله عنها) في أغلب كتب السنة والتاريخ. منها: البخاري: كتاب الشهادات (52). باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (15)، حديث 2661 - فتح الباري 5/ 319 - 322 وكتاب المغازي (64) - باب حديث الإفك (34)، حديث 1414 - 7/ 496 - 499، وكتاب التفسير (65) باب «لولا إذ سمعتموه... (6) حديث 4750 - 8/ 306 - 309.

ومسلم: كتاب التوبة (49). باب: حديث الإفك وقبول توبة القاذف. حديث 46 - 5/ 628 - 639، وأحمد: حديث 25499 - 18/ 9 - 104، والترمذي: كتاب التفسير (48). باب » ومن سورة النور» (25) حديث 80/ 2 - 5/ 332 - 335. وقال: حديث حسن صحيح، والسيرة النبوية لابن هشام 2/ 297 - 303، وتاريخ الطبري 2/ 610 - 619، وانظر طبقات ابن سعد 8/ 63 - 90.

(2) الزمخشري: الكشاف 3/ 52. وعن جرائم المنافقين في حق النبي (ﷺ) والإسلام والمسلمين راجع للمؤلف الفصل الأول من بحث (وسائل أعداء الإسلام في التضليل) وعنوان الفصل: (الأصول والجذور). (ص30 - 41).

- ظلت عائشة مريضة شهرًا، وهي لا تعلم ما يدور على ألسنة الناس، ولكنها أحست أنها لم تعد تجد من لطف رسول الله (ﷺ) ما كانت تجد من قبل، ولم تعلم بحديث الإفك إلا من أم مسطح بن أثاثة أحد المروجين للإفك. أما الآخرون فهم حمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وصاحب القدح المعلى في ذلك: عبد الله بن سلول.
- نزل الخبر على عائشة نزول الصاعقة، وأخذت تبكي ليل نهار، حتى أصبحت - على حد قوله: «**لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم**».
- وعاش رسول الله (ﷺ) هذه المحنة في حزن عميق، **ولكن هذا لم يمنعه اتخاذ المواقف الثلاثة الآتية:**

1 - استشار أسامة بن زيد - الحب ابن الحب - وعلي بن أبي طالب، فأجاب الأول أنه لا يعلم عن عائشة إلا خيرًا، وشهدت الجارية نفس الشهادة، أما علي فكان جوابه: «**لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير**».

2 - وقف الرسول (ﷺ) على المنبر، وعرض الأمر على المسلمين قائلًا «**من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلا**[1] **ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**» فقام سعد بن معاذ الأنصاري[2] فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله: إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

---

(1) يقصد صفوان بن المعطل، ويكنى أبا عمرو، أسلم قبل غزوة بني المصطلق، وشهدها وقيل شهد مع رسول الله (ﷺ) الخندق والمشاهد كلها، وكان شجاعًا فاضلًا خيرًا بطلًا، وفي الحرب كان يكون على ساقة النبي (ﷺ). ويقال إنه عاش إلى خلافة معاوية، فغزا الروم، فاندقت ساقه، ثم نزل يطاعن حتى مات، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين. (الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة 2/ 187).

(2) وقيل غيره؛ لأن سعد بن معاذ استشهد قبل غزوة بني المصطلق، وقد أورد النووي هذا الخلاف في شرحه لصحيح مسلم 5/ 634. وسعد بن معاذ هو سيد الأوس، ويكنى أبا عمرو وشهد بدرًا باتفاق ورمى بسهم يوم الخندق، فعاش بعد ذلك شهرًا حتى حكم في بني قريظة وأجيبت دعوته في ذلك. ويوم جنازته قال النبي (ﷺ): اهتز العرش لموت سعد بن معاذ (الإصابة لابن حجر 2/ 37).

فثار سيد الخزرج سعد بن عبادة[1]، وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير[2]، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان من الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله (ﷺ) قائم يخفضهم، حتى سكتوا وسكت[3].

3- ثم وجه النبي (ﷺ) الحديث صريحًا إلى عائشة (رضي الله عنها) «**إنه قد بلغ عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه**»[4].

وما نسب إلى عائشة وصفوان بن المعطل كان إفكًا ظاهرًا وكذبًا بينًا، وذلك لمجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله (ﷺ) بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة، لم يكن هذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورًا. فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين وهو الكذب البحت والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة[5].

(1) وسعد بن عبادة سيد الخزرج يكنى أبا ثابت وأبا قيس، شهد العقبة وكان أحد النقباء، كان يقال له «الكامل»؛ لأنه كان يحسن الكتابة بالعربية والعوم والرمي، وكان مشهورًا بالجود، فكان يعشي كل ليلة ثمانين من أهل الصفة. مات قتيلًا في حوران من أرض الشام سنة 15هـ (الاستيعاب 2/ 40 والإصابة 2/ 30).

(2) أسيد بن حضير الأنصاري الأشهلي، أسلم قبل سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير، وكان ممن شهد العقبة الثانية وهو من النقباء ليلة العقبة، شهد كل المشاهد مع النبي (ﷺ)، وكان ممن ثبت معه يوم أحد. وفيها جرح سبع جراحات. وكان من الكملة العقلاء أهل الرأي والشجاعة. ومن أحسن الناس صوتًا بالقرآن. توفي سنة عشرين في خلافة عمر ودفن بالبقيع (الاستيعاب – على هامش الإصابة: 1/ 53- 55).

(3) مسلم 5/ 635.

(4) السابق، 5/ 637.

(5) تفسير ابن كثير 6/ 19.

ويؤكد هذا أنه لو كان هناك ريبة، لكان من الممكن أن يأتي صفوان وحده، ويترك عائشة إلى أن يبعثوا في طلبها، أو يقيم قريبًا منها إذا خاف أن يتركها وحدها، فلا يراه أحد من الناس إذا رجعوا إليها[1].

وواقع الحال بهذه الصورة يقطع ببراءة عائشة مما رميت به، ومع ذلك لم يستند إليه رسول الله (ﷺ) في انتظار بيان السماء؛ **لأن هذا الدليل العملي قد يحتمل من تأويل ذوي النوايا السيئة ما يحتمل،** أما بيان السماء فهو القاطع الذي لا يحتمل تحريفًا أو تأويلًا.

وظلت عائشة، والنبي (ﷺ)، والمجتمع الإسلامي في همٍّ دائم، وحزن قاس، إلى أن نزلت براءة عائشة من السماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: 11 - 20).

لقد جاء حديث الإفك ابتلاء ومحنة حملت من مظاهر المنن والخير غير قليل، وجاء موقف النبي (ﷺ) ناطقًا بمصداقيته في نبوته: لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالًا ومجالًا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام، ولا يجد في

(1) الصعيدي: القضايا الكبرى 11.

شأنها قرآن يقرؤه على الناس. ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته، وأبطأ الوحي، وطال الأمر، والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس «**إني لا أعلم عنها إلا خيرًا**». ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله، والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر «**يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله**».

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو - كما ترى - كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها، ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها. فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله[1].

فالوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًا ينبثق من كيان النبي (ﷺ)، كما أنه ليس شيئًا خاضعًا لإرادته أو تطلعاته وأمنياته، إذ لو كان كذلك لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها، ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآنا يطمئن به أصحابه المؤمنين، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل؛ لأنه لا يملك ذلك[2].

فالنبي (ﷺ) لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير

(1) د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم 20-24.

(2) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية 310.

ما لا يجوز نسبته إلا لله وحده[1].

وإذا كان حديث الإفك قد أبان عن مصداقية الرسالة والرسول (ﷺ)، فإنه قد أبان أيضًا عن المعدن الأصيل لمجتمع المسلمين؛ فقد شاركوا النبي (ﷺ) همومه، ونهض بعض الصحابة يبدون في حماسة استعدادهم لقتل من جاء بالإفك كائنًا من كان مركزه ونسبه وقرابته.

ومن الصور الوضيئة في هذا المقام ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري[2] (رضي الله عنه) قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله (ﷺ) سوءًا؟ قال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة (رضي الله عنها) ما خنتُ رسول الله (ﷺ)، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك[3].

وجاء حديث الإفك ليزيد من كشف سوءات المنافقين، ويبرز مدى خطورتهم، وأنهم لا يتورعون عن استخدام أحط الوسائل وأحقرها لمحاربة الإسلام والنبي (ﷺ)، ومنها النيل من عرضه، والتشكيك في طهارة أهل بيته.

وأبان حديث الإفك للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف، وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي عندئذ لا تقف عند حد، إنما تمضي صعدًا إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية

---

(1) السابق 309.

(2) أبو أيوب الأنصاري النجاري، واسمه خالد بن زيد بن كليب شهد العقبة وبدرًا وما بعدها، ونزل عليه النبي (ﷺ) لما قدم المدينة، وآخى بينه وبين مصعب بن عمير، وشهد الفتوح. وشهد قتال الخوارج مع علي بن أبي طالب. ولزم أبو أيوب الجهاد بعد النبي (ﷺ). فكان ضمن الحملة التي أرسلها معاوية بقيادة ابنه يزيد لغزو القسطنطينية سنة 52 هـ. ومات ودفن أمام أسوارها إذ لم يتمكن يزيد من فتحها. وقبره في مدينة اسطنبول بتركيا. (انظر الإصابة 1/ 405).

(3) تفسير الكشاف 3/ 53 - والقرطبي 5/ 4594. وانظر لعبد الحليم العبد اللطيف: حديث الإفك 190 - 191.

وكل تحرج وكل حياء[1].

وأبرزت آيات التبرئة خطورة ترويج حديث الإفك، وتأثيم المروجين، وذلك في قوله ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام، وعلق مس العذاب العظيم بها:

أحدها: تلقي الإفك بألسنتهم، وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك، حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه.

والثاني: التكلم بما لا علم لهم به.

والثالث: استصغارهم لذلك، وهو عظيمة من العظائم[2].

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدري ما تبلغ، يهوى بها في النار أبعد مما بين السموات والأرض**»[3].

ومع ذلك وصفت الآيات حديث الإفك بأنه كان للنبي، وآل بيته، بل للجماعة المسلمة خيرًا لا شرًّا، والخير - كما يقول القرطبي - حقيقته ما زاد نفعه على ضره، والشر ما زاد ضره على نفعه، وإن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وشرًّا لا خير فيه هو جهنم، **فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير**؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة، فنبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان؛ إذ الخطاب لهم في قوله ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..﴾، لرجحان النفع والخير على جانب الشر[4].

---

(1) في ظلال القرآن 4/ 2500.

(2) الكشاف ٣/ 54.

(3) ابن كثير 6/ 19، والحديث متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الرقاق (81) باب حفظ اللسان (23). حديث 6477 - 11/ 314. ومسلم كتاب الزهد، باب حفظ اللسان 5/ 836. كما أخرجه الترمذي: كتاب الزهد (37) باب فيمن يتكلم بكلمة يضحك بها الناس (10) حديث 2314 - 4/557. وقال حديث غريب من هذا الوجه. وابن ماجة: كتاب الفتن (36) باب: كف اللسان في الفتنة (12) حديث 3970 - 3/405.

(4) القرطبي 4590.

ولكن حتى يتحقق هذا الخير يبقى على الجماعة المسلمة - بوعي ناشط وحس إيماني قوي - أن يرفضوا ابتداء هذه المقالة المنحرفة متحلين بالحذر وحسن الظن، وهذا ما يدل عليه هذا العتاب الإلهي الكريم ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: 12)، إنه توجيه في هيئة عتاب من الله تعالى لأهل الإيمان به، فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة بما أرجف به. يقول لهم تعالى ذكره: هلا أيها الناس إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة، ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرًا! يقول: ظننتم بمن قرف بذلك منكم خيرًا، ولم تظنوا به أنه أتى الفاحشة. وقال «**بأنفسهم**»؛ لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة؛ لأنهم أهل ملة واحد[1].

هذا، وقد ذكر الإمام النووي ثلاثًا وخمسين فائدة مستخلصة من حديث الإفك، نقتطف منها ما يأتي:

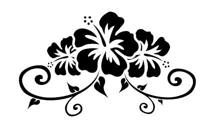
- جواز خروج المرأة لحاجة الإنسان بغير إذن الزوج، وهذا من الأمور المستثناة.
- إعانة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوي الأقدار.
- حسن الأدب مع الأجنبيات، لا سيما في الخلوة بهن عند الضرورة في برية أو غيرها.
- استحباب الاسترجاع عند المصائب، سواء أكانت في الدين أو الدنيا، وسواء أكانت في نفسه، أو من يعز عليه.
- استحباب أن يُستَر عن الإنسان ما يقال فيه، إذا لم يكن في ذكره فائدة.
- استحباب ملاطفة الرجل زوجته، وحسن المعاشرة.
- فضيلة أهل بدر، والذب عنهم.
- الزوجة لا تذهب إلى بيت أبويها إلا بإذن زوجها.
- استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينويه من الأمور.

---

(1) تفسير الطبري 8/ 128.
وانظر: العبد اللطيف: حديث الإفك 245 - 247.

- جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة عمن له به تعلق، أما غيره فهو منهي عنه، وهو تجسس وفضول.
- المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات، وتسكين الغضب.
- قبول التوبة والحث عليها.
- استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه بلية ظاهرة.
- تجديد شكر الله تعالى عند تجدد النعم.
- استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين.
- التثبيت في الشهادة.
- إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه، ومن خدمه، أو أطاعه[1].

وهذه الأحكام أو هذه الفوائد - وغيرها كثير - تقطع بصدق حكمه تعالى بأن «حديث الإفك» جاء - من حيث لم يرد أعداء الإسلام - «**خيرًا لا شرًا**» بكل المقاييس: خيرًا للنبي (ﷺ)، وخيرًا لعائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وخيرًا لجماعة المسلمين في المجتمع المدني، وخيرًا للمسلمين على مدار العصور: ينظرون إليه، ويستلهمون العبر والدروس والفوائد في مجال النفس والتعامل وبناء العلائق الاجتماعية، ومواجهة الأزمات والشدائد، وخصوصًا تلك التي تصيب المسلم في أعز ما يعتز به، ويحرص على صيانته وفدائه.



(1) صحيح مسلم بشرح النووي 5/ 641 - 644.

2 - ابتــلاء الأمــة بالجــوع والطــاعون

أ - عــام الرمــادة

في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان عام 18هـ، هو عام المجاعة والقحط والبلاء في جزيرة العرب، وسمي عام المجاعة هذا بعام الرمادة؛ لأن «الرمادة» لغة: هي الهلاك، وفي هذا العام هلك من الأموال والناس الكثير والكثير.

وفي لسان العرب يقال: رمده وأرمده إذا أهلكه وصيره كالرماد. ورمِد وأرمَد: إذا هلك، والمعنى الأصلي للرماد في اللغة هو «دُقاق الفحم من حُراقة النار، وما هبا من الجمر، فصار دقاقًا، والطائفة منه رمادة»[1].

فإطلاق اسم «الرمادة» على عام النكبة سنة 18هـ، إنما هو إطلاق يتفق مع الواقع:

- فهو عام الهلاك، حتى قيل: هلك من الناس ثلثاهم، ولم يبق منهم إلا الثلث.
- وهو عام انقطع فيه المطر تمامًا، فاسودت الأرض وصارت في لون رماد الفحم من انعدام الماء وحرارة الشمس، فخلت تمامًا من الشجر والعشب.
- وفيه هلكت الماشية، وجاع الناس، وبلغ بهم الجوع حتى استفّوا الرمة (أي كانوا يحرقون جلد الحيوان وعظمه البالي ويدقونه ويستفونه)، وحفروا أنفاق اليرابيع والفئران، يخرجون ما فيها ويأكلونه.
- وفيه كلحت وجوه العرب، واسودت، فهي في لون الرماد من الجوع.
- وفيه كانت الريح تسفي بشدة ترابًا أسود كالرماد.

وفي هذا العام - كما جاء في تاريخ الطبري - جعل الوحش يأوي إلى الإنس، وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنه لمقفِر[2].

---

(1) انظر: لسان العرب 3/ 1727، والقاموس المحيط 362.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 4/ 98.

كتب العقاد في «عبقرية عمر":

إن هذا الرجل لم تواجهه في ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه، وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته، أو هيبة ودراية أجلّ ما كان له من هيبة ودراية، فإذا عرضت الصعوبة الطارئة، فهناك الحزم اللازم لمواجهتها، والحيلة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس بهذه الأمور، وكان اضطلاعه بتفريج الأزمات كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمير والتنظيم»[1].

وبهذه الآليات من حزم وعزم، وقدرة على التدبير ومواجهة المشكلات والنوازل استطاع عمر أن يواجه نكبة الرمادة التي نزلت بالمسلمين في جزيرة العرب، ولم يكن لها من قبل شبيه.

فبادر بإرسال كتب الاستغاثة والاستمداد إلى ولاته في الأمصار، وهي تشبه البرقيات في عصرنا، لما تتسم به من طوابع السرعة والإيجاز والمباشرية، زيادة على توهج الشعور، فالمجال ليس مجال شرح وتفصيل، ومقدمات طوال، وعرض بلاغي؛ لأن المجاعة المهلكة لا تسمح بالاتساع لمثل ذلك، والوقت في هذا الحال عزيز عزيز.

وجاءت استجابة الولاة سريعة عملية، وكتب إليه عمرو بن العاص من مصر:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: أتاك الغوث، فلبِّثْ لبِّث (أي اصبر وانتظر)، لأبعثن إليك بعيرٍ أولها عندك، وآخرها عندي»[2].

وكان أول من قدم عليه بمدد أبو عبيدة بن الجراح، فقد قدم عليه بأربعة آلاف راحلة (ناقة) محملةً بالطعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة[3].

---

(1) العقاد: عبقرية عمر 157 - 158.

(2) ابن سعد 3/ 243.

(3) تاريخ الطبري 3/ 100.

وبعث إليه عمرو بن العاص في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك (الدسم والسمن). وبعث إليه في البر بألف بعيرٍ تحمل الدقيق، وبعث إليه كذلك بخمسة آلاف كساء.

وبعث إليه معاوية بن أبي سفيان بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءة.

وبعث إليه وإلى الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق[1].

وكان أكثر الناس تضررًا بالمجاعة؛ الأعراب سكان الصحراء الذين يعيشون على المطر، فقصد المدينة آلاف من الأعراب الذين يعانون القحط والجوع، فوكل عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بعض الصحابة بالطبخ ومد الموائد لهم وإطعامهم، وصار العدد يزيد مع الأيام على مدى تسعة أشهر، وبلغ من تعشى عند عمر عشرة آلاف. أما العيالات الذين لا يأتون، والمرضى والصبيان (الذين يحمل إليهم الطعام في مقارهم)، فبلغوا خمسين ألفًا[2].

ويذكر ابن سعد في الطبقات: أن عمر كان يصنع الطعام وينادي مناديه: من أراد أن يحضر طعامًا فيأكل فليفعل، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله، فليأت فليأخذه[3].

وكان عمر يجتمع كل مساء مع القائمين على أمر إطعام أهل المدينة ومن نزل بها، ونزل بما حولها من الأعراب فيخبرونه بكل ما كانوا فيه[4].

وكانت وطأة المجاعة - كما ذكرنا - أشد وأنكى على الذين يعيشون في غير المدينة من مناطق الجزيرة العربية، وخصوصًا أطرافها، وكان عمر -

(1) ابن سعد 3/ 250.

(2) السابق 3/ 252.

(3) السابق 3/ 244.

(4) السابق 3/ 252.

كما ذكرنا - قد أرسل إلى ولاته يستمدهم الطعام، وكان يعلم أن توجه هذه الإمداد ونزولها بالمدينة ثم انطلاقها إلى الأطراف لتوزيعها سيحمله من المشاق الكثير والكثير؛ لذلك وجه رسله لاستقبال مدد سعد بن أبي وقاص بأفواه العراق، فجعلوا ينحرون الجُزُر (الإبل)، ويطعمون الدقيق، ويكسون الناس في هذه المناطق العَبَاء حتى رفع الله ذلك عن المسلمين[1].

وأرسل رسله حيث التقت قوافل عمرو بن العاص البرية بأفواه الشام، فعدل بها رسله يمينًا وشمالًا ينحرون الجزر، ويطعمون الدقيق، ويكسون العباء[2].

واتخذ من مدينة الجار، (وهي مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر بينها وبين المدينة يوم وليلة) مركزًا من مراكز التوزيع؛ حيث تولى رسوله استقبال سفن عمرو بن العاص التي أرسلها محملة بالأقوات والمؤن من مصر.. وأخذ يوزع الطعام من السفن على أهل تهامة، ومن ينزلون ما بين مكة والمدينة[3].

وكان عمر (رضي الله عنه) يوصي رسله وعماله بما يجب أن يفعلوه، ويقولوه، ويوجهوا إليه من أصابهم القحط والجوع.

فيروى أنه عند قدوم أول الطعام وصَّى رسوله بما يأتي:

1- أن يعترض للعير (قافلة الطعام)، فيميلها إلى أهل البادية.

2- أن يتخذ أهل البادية من الظروف (أكياس الطعام بعد تفريغها) لُحُفا يلبسونها.

3- أن ينحر لهم الإبل، فيأكلوا ما شاؤوا من لحومها، ويدخروا ما شاؤوا من دهونها.

4- أن يصنعوا من الدقيق ما شاؤوا، ويدخروا منه كذلك[4].

---

(1) ابن سعد 3/ 245.

(2) السابق 3/ 244.

(3) انظر ابن سعد 3/ 244- 245.

(4) السابق، 3/ 243 - وتاريخ الطبري 4/ 100.

وفي عام الرمادة أخّر عمر الصدقة، أي لم يجمع الزكاة من الناس، فلما أمطرت السماء، وأذهب الله عن الأمة المحل والجدب، أمر سعاته في العالم التالي أن يأخذوا عقالين، (أي زكاة عامين)، فيقسموا عقالًا بين المحتاجين من أهل الناحية، ويقدموا على عمر بعقال[1].

وبعد أن أتى الله بالفرج، وأمطرت السماء، خشي عمر أن يستمرئ الأعراب الذين نزلوا بالمدينة وما حولها حياة المدر، ويركنوا إلى الدعاة والاسترخاء، فعمل على إخراجهم إلى منازلهم الأولى في البادية، وأعطاهم ما يكفيهم وما يحملون عليه، وكان يشرف على ذلك بنفسه[2].

وعاش عمر (رضي الله عنه) عام الرمادة حزينًا مهمومًا، على قوة عزمه وحزمه وصبره وقوة إرادته، حتى قال خادمه أسلم «كنا نقول: لو لم يرفع الله (سبحانه وتعالى) المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين»[3].

وكان عمر يعلم علم اليقين أهمية التقوى، وشحن المسلمين بالطاقة الروحية التي تستمد من الدعاء والاستغفار وطاعة الله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: 2، 3) فكان دائم الدعاء، وتذكير الناس بالله.

ومن أهم عوامل التوفيق في التصدي لهذه النكبة والتغلب عليها أنه (رضي الله عنه) – كما ذكر الدكتور محمد حسين هيكل (رحمه الله) – كان «القدوة المثلى» للناس في كل الأمور، فنزل بعيشه إلى مستوى حياة الفقراء الذين لم يكونوا يجدون إلا مائدته يجلسون إليها مع الألوف الجائعين لينالوا ما يُبقي عليهم الحياة، فكان يأكل معهم، ولا يرضى أن يتناول طعامه في بيته، حتى لا يظن أحد أنه يؤثر نفسه بشيء لا يناله ذو الفاقة من قومه. وقد حقق بتصرفه هذا غرضين جليلين:

---

(1) ابن سعد 3/ 260.

(2) السابق، 3/252، 262.

(3) ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب 71.

أولهما: الشعور بألم الناس شعورًا يدفعه إلى مضاعفة الجهد في العناية بهم، والعمل لدفع الضر عنهم.

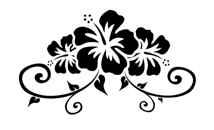
وآخرهما: طمأنينة السواد إلى أن أمير المؤمنين يشاركهم في بأسهم وضرائهم، فلا تثور نفوسهم، بل يظلون راضين بكل ما يصيبهم؛ لأن أكبر رجل في الدولة يشاركهم فيه. وقد بلغ عمر من هذين الغرضين خير ما يبلغه حاكم في أية أمة من الأمم[1].

وبهذه القدوة كان يُلزم أهله، فكان إذا أراد أن ينهي الناس عن شيء، تقدم إلى أهله، فقال «لا أعلمن أن أحدًا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة[2].

وفي عام الرمادة حرم على نفسه السمن واللحم. قال خادمه (أسلم" :... كان يأكل الزيت، فقال: يا أسلم، اكسر عني حرّه بالنار. فكنت أطبخه له، فيأكله، فيتقرقر بطنه عنه، فيقول: تقرقر، لا والله لا تأكله (السمن) حتى يأكله الناس»[3].

وبذلك التقت في عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) محاسن الذات ومكرماتها قولًا وفعلًا، بحسن التدبير والتخطيط، ووراء كل أولئك إيمان بالله لا يضعف، وثقة بالله لا حدود لها، ومعايشة حقيقية صادقة للأمة في آلامها وآمالها، وكل أولئك يثمر النجاح والفلاح والتوفيق والنصر الفائق المبين.

وتلقت الأمة المحنة متدرعة بالصبر، عائذة بالتقوى، فلم يهتز إيمانها، ولم تفقد يقينها وثقتها بالله، فاجتازت هذا الابتلاء بتوفيق ونجاح بعد أن منحها مزيدًا من القوة والصقل والقدرة واليقين.



(1) د. محمد حسين هيكل: الفاروق عمر 1/ 293.

(2) ابن سعد 3/ 217.

(3) السابق، 3/ 248. وابن الجوزي: المناقب 139.

ب - طاعــون عمــواس[1]

ينقل لنا الطبري في تاريخه أن طاعون عمواس وقع في سنة سبع عشرة من الهجرة[2].

وفي رواية أخرى أنه وقع سنة ثماني عشرة[3]، وبلغ عدد الذين ماتوا بالطاعون من المسلمين خمسة وعشرين ألفا[4].

وممن مات في هذا الطاعون أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وابنه عبد الرحمن، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وكثير من أشراف الناس[5].

ويروى عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ[6] لقيه أمراء الأجناد - أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في أرض الشام، فاختلفوا: فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس، وأصحاب رسول الله (ﷺ)، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين،

---

(1) الطاعون داء وبائي سببه ميكروب يصيب الفئران، وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان (المعجم الوجيز 391).

(2) تاريخ الطبري 4/ 57، 62.

(3) السابق: 4/ 60 (وسنعود إلى هذه المسألة إن شاء الله).

(4) انظر: ابن الأثير: أسد الغابة 6/ 205 - 206.

(5) انظر: طبقات ابن سعد 3/ 382 - تاريخ الطبري 4/ 60 - البلاذري: فتوح البلدان 145.

(6) سرْغ: موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك. وهو أول الحجاز وآخر الشام (ياقوت الحموي: معجم البلدان 3/ 211).

ثم قال: ادعُ لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه[1]، قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرار من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!! [2] - نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كانت لك إبل هبطت واديًا له عدوتان[3]، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال (ابن عباس): فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيبًا في بعض حاجته - فقال: إنَّ عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إذا سمعتم به (**الطاعون**) **بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارًا منه.**

قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف[4].

وقد جمع النبي (ﷺ) للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي بها الطاعون، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو بها تعرضًا للبلاء، وموافاة له في محل سلطانه، وإعانة للإنسان على نفسه، وهذا مخالف للشرع والعقل[5].

---

(1) أي مسافر راكب على ظهر الراحلة راجع إلى وطني، فأصبحوا عليه، وتأهبوا له (النووي على مسلم 5/ 69).

(2) لو غيرك قالها .. لعاقبته، أو لكان أولى منك بذلك، أو لم أتعجب منه. ولكني أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا، ويحتمل أن يكون المحذوف لأدبته، أو هي للتمني فلا يحتاج إلى جواب، والمعنى: أن غيرك ممن لا فهم له إذا قال ذلك لعذر (فتح الباري: 10/ 196).

(3) العدوة: المكان المرتفع من الوادي.

(4) أخرجه البخاري في كتاب الطب (76) باب ما يذكر في الطاعون (30) فتح الباري 10/ 189. ومسلم: كتاب السلام: باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. النووي 5/69، وانظر: الطبري 4/ 58.

(5) ابن القيم: الطب النبوي 42.

ومن معاني نهيه عن الخروج من بلد الطاعون «حمل النفوس على الثقة بالله والتوكل عليه والصبر على أقضيته، والرضى بها[1]!

والابتلاءات بالتحقيق كانا متتاليين: عام الرمادة أولاً، وتلاه مباشرة طاعون عمواس، وقد رأينا سياسة عمر في مواجهة عام الرمادة، **فكيف واجه طاعون عمواس؟**

1 - أخذ عمر بالأحوط فرفض أن يدخل هو وصحبه عمواس، واطمأن إلى هذا التصرف استنادًا إلى منطق العقل؛ لا فرار من قدر الله إلا إلى قدر الله، فقدر الله حكم لا مهرب منه، واختيار الإنسان ما يرى أنه الأصلح لا يعد من قبيل التمرد على القدر، وكان عمر فطنًا حكيمًا حين استشهد على صحة وجهته بمثل من واقع الحياة بعيشه الناس: مثل المرعى الخصيب، والمرعى الجديب.

وأخيرًا ازدادت طمأنينته واقتناع من معه - ممن رأى رأيه أو عارضه - بالنص الشرعي، وهو حديث رسول الله (ﷺ) الذي رواه عبد الرحمن بن عوف.

"فكان إيمانه بصيرًا، لا يهجم به على عمياء، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة، وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب؛ وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كرأيه الخاص في أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلًا»[2].

2 - ومن حرصه على سلامة المسلمين، وقد اشتد الوباء، كتب إلى أبي عبيدة: «أما بعد، فإنك أنزلت الناس أرضًا غمقة[3]، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة»[4].

ولكن الأجل لم يمهل أبا عبيدة، فمات بالطـاعون، وبه مات خليفته معاذ بن جبل، فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص، فتبنى

(1) الطب النبوي: 43.

(2) العقاد: عبقرية عمر 115.

(3) غمقة: فاسدة الريح. (القاموس المحيط) 1182.

(4) تاريخ الطبري 4/ 61.

دعوة عمر، وخطب الناس قائلًا: «إن هذا الوجع إذا وقع، فإنما يشتعل اشتعال النار، فتحيلوا منه في الجبال»[1].

ثم خرج، وخرج الناس، فتفرقوا، ورفع الله عنهم الوباء.

3- وأبانت هذه المحنة عن حب عمر بن الخطاب لأبي عبيدة (ﷺ)، واعتزازه به، كما أبانت عن حرص أبي عبيدة على أن يكون قدوة لغيره من المسلمين؛ فهو قائد الناس في الشام، وعمر كان به ضنينًا، فأراد أن يستقدمه؛ ليبعد به عن أرض الهلاك، فكتب إليه:

"سلام الله عليك، أما بعد، فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا، ألا تضعه في يدك حتى تقبل إلي»[2].

فكتب إليه أبو عبيدة:

"يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضاءه، فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي»[3].

4- وفي هذه النكبة أخذ عمر نفسه بمبدأ الشورى، فهو لم ينفرد برأيه، أو لم يُبِنْ عن رأيه ابتداء، ولكنه استشار الناس على اختلاف سبقهم في الإسلام. ثم أعلن عن رأيه الذي أيده بدليل عقلي واقعي يعيشه الناس، ثم كان النص الذي لا اجتهاد معه، وهو حديث رسول الله (ﷺ) الذي ينهي عن خروج أهل البلدة إذا حلّ بها وباء، وينهي عن دخول غيرهم إليها. وهو ما يسمي في الوقت الحاضر بالحجر الصحي.

---

(1) تاريخ الطبري، 4/62.

(2) السابق، 4/ 61.

(3) السابق 4/ 61.

إن ما نزل بالمسلمين من قحط وجوع عام 18هـ الذي أطلق عليه عام الرمادة، وما نزل بهم من مرض هو الطاعون بُعيّد ذلك إنما هما محنتان متلاحقتان، وابتلاءان قويان في النفس، وحاجات النفس من طعام ومال وشراب وكساء، وتنتهي المحنتان، وتبقى الدلالات والدروس والمواعظ والقيم التي تمثل وجه الخير فيما نزل بالمسلمين ومنها:

1 - إثبات مصداقية القرآن الذين نزلت آياته المدنية تنبه المسلمين مقدمًا إلى الابتلاء الجماعي سنة إلهية ممتدة، ومن هذه الآيات:

- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: 155).

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: 31)[1].

2 - تقوية الأمة الإسلامية، وزيادة طاقاتها، وإحماء قدرتها على تحمل الشدائد والمكاره والصعاب، فهذا الابتلاء الذي تمثل في هاتين المحنتين العاتيتين لم يوقف مسيرة الفتوح الإسلامية لنشر الإسلام في ربوع آسيا وأفريقيا.

3 - ترسيخ فضيلة الصبر في نفوس المسلمين، حتى أصبحت هذه السمة جزءًا أساسيًا من نسيج الشخصية المسلمة.

4 - إبراز قيمة «العمل الجماعي»، والتعاون الصادق بين جميع أفراد الأمة للتغلب على المكاره والمصائب، وقد رأينا كيف هرع ولاة الأمصار في تقديم الإمداد من طعام وكساء.

5 - من أهم عوامل التوفيق في التغلب على الشدائد براعة الحاكم في مواجهتها.

بحساب دقيق، وتخطيط محكم، مع المتابعة الجادة لما أُنجز من مراحل هذا التخطيط.

وأهم من ذلك أن يكون الحاكم نفسه قدوة حسنة للرعية في سلوكه وعمله ومعاشه.

6 - للطاقة الروحية أكبر الأثر في مواجهة المحن وتحملها دون اهتزاز وهلع، ولا ينشئ هذه الطاقة، ويشحذها، ويقويها مثل الإيمان بالله، والحرص على التقوى، والذكر، والاستغفار.

---

(1) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

3 - ابتـــلاء العلمـــاء

أحمد بن حنبل[1] ومحنة خلق القرآن

العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم الناطقون بالشرع، الناشرون لدين الله الحافظون لكتابه، الذائدون عن ملته؛ لذلك رفع الله (ﷻ) مكانتهم في محكم كتابه فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر: 9).

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ...﴾ (المجادلة: 11).

والعلماء هم الذين يدركون الحق، ويقدرونه حق قدره، ويركنون إلى اليقين ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سبأ: 6).

ويعرفون حقيقة الوحي وجلاله، ويعظمون أمر الله، ويخشعون له في صدق وإيمان ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: 107 - 109).

---

(1) أحمد بن حنبل هو الإمام أبو عبد الله بن محمد بن حنبل الشيباني (164 - 241) ولد ببغداد، وكان إمام المحدثين. صنف كتابه (المسند) وجمع فيه من الأحاديث ما لم يتفق لغيره، وكان كثير الحفظ صاحب الإمام الشافعي إلى أن ارتحل إلى مصر، وقال في حقه «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل. وقد عاصر من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

وممن أخذ عنه الحديث الإمامان البخاري ومسلم، وله كتب منها غير المسند «الناسخ والمنسوخ» و"الرد على الزناقدة» و «الصحابة» و «المناسك» و"الزهد» و"الأشربة» و"المسائل» و"العلل والرجال» (الزركلي: الأعلام 1/ 203. وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/ 63 - 65).

وهم أهل الإيمان الحق واليقين الراسخ، والتسليم له تسليمًا لا يشوبه ضعف ولا شك ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران: 7).

فلا عجب أن يكون العلماء في كل عصرهم الأسوة والقدوة، وبقدر علمهم تكون مسئوليتهم في توجيه الناس إلى الحق، وإرشادهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، يسخون، ولا يضنون بما رزقهم الله من علم وقدرة على التعليم والتوجيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في صراحة واتزان ووضوح، ولذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل «إذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟»[1].

فجناية التقية هنا - وهي إظهار غير الحق والواقع، وخلاف ما يؤمن به العالم - لا تمثل وجهًا سلبيًا، ولكن وجهًا إيجابيًا خطيرًا؛ لأن عامة الناس يجهلون الحق والصواب، وينظرون إلى العلماء على أنهم منارات الهداية والرشاد والإرشاد، ومن ثم يقتدون بهم معتقدًا وقولاً وفعلاً، ويسيرون على دربهم، وينقلون عنهم لغيرهم، فينستر الحق، ويظهر الباطل في ثوب غير ثوبه، والضلالة بوجه غير وجهها الحقيقي.

فالجهر بالحق، وتوجيه الآخرين وإرشادهم إلى وجوه العمل الصالح حتى يأتوه، والباطل والعمل الطالح حتى يحذروه ويتقوه، يمثل رسالة العالم الفقيه، والهدف الذي يتغياه، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾ (التوبة: 122).

(1) انظر عبد العزيز البدري: الإسلام بين العلماء والحكام 163.

والمعنى أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه، ليأخذوا عنه الفقه في الدين، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم.

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين جعله الله سبحانه متصلًا فيكون السفر نوعين: الأول سفر الجهاد، والثاني السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفرٍ.

ومعنى «**لعلهم يحذرون**»: الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك، أو فيما يجب تركه فيفعل[1].

فالآية إذن تعرض ثلاثية كريمة تمثل المراحل الثلاث الآتية:

1 - التفقه في الدين والعلم، ويمثل جانب التلقي، وإعداد النفس فقهيًا وعلميًا للإعطاء والتوجيه.

2 - الإنذار والتوجيه والإرشاد جهرة وصراحة دون مواربة، وهذا هو جانب المنح والإعطاء.

3 - استجابة الأمة وانتفاعها بالحذر من الوقوع في الخطايا، مع الحرص على السير في درب الحق والخير والصلاح.

وبخلاف ذلك - أي اتخاذ التقية - مع بقاء عامة الناس على جهلهم - لن يتبين الحق - كما يقول الإمام أحمد بن حنبل.

(1) الشوكاني: فتح القدير 2/ 516 - 517.

على أن الأخذ بالتقية في دار الإسلام - كما يقول أبو زهرة - لا يصح؛ لأن المنكر في دار الإسلام يجب استنكاره، وإلا تحولت صفتها، ولم يعد لها اسمها. وأن الاستنكار له مراتب، والتقية تكون حيث لا يكون الإسلام قوة وسلطان كبلاد يُضطهد الإسلام فيها، ولا سبيل للمسلم في الخروج منها، فيستخفي بدينه، وتلك رخصة رخصت له تيسيرًا وتسهيلًا، وكل نفس وما تطيق.

ولأن التقية لا تجوز من الأئمة الذين يُقتدى بهم، ويُهتدى بهديهم، حتى لا يضل الناس؛ لأنهم إن نطقوا بغير ما يعتقدون، وليس للناس علم ما في الصدور، اتبعوهم في مظهرهم، ويظنون أنه الحق الذي اتبعوه دينا، وبذلك يكون الفساد عامًا ولا يخص، وحق على الإمام أن يكون الممتحن المبتلى فتنتشر الفكرة السليمة، ويكون الابتلاء سبيل نشرها وذيوعها(1).

وقد أخذ الإمام أحمد بن حنبل نفسه بهذا المبدأ الحق: **الصراحة وتجنب التقية** في مواجهة محنة خلق القرآن، هذه الدعوة التي أخذت صورتها الحادة الجادة في عهد المأمون. وظلت المحنة قائمة في عهد المعتصم والواثق إلى أن أزال الله غمتها على يد المتوكل(2).

---

(1) محمد أبو زهرة: ابن حنبل ٥٧.

(2) المأمون هو عبد الله أبو العباس بن الرشيد (170 - 218)، ولاه أبوه العهد بعد أخيه الأمين، ولكن الأمين غدر به بعد أن تولى الأمر، فقتله المأمون وتولى الخلافة سنة 198. كثرت في عهده الفتن والثورات، ونشطت حركة الترجمة وقاد حملات حربية ضد البيزنطيين.

والمعتصم بالله العباسي (180 - 227) بويع بالخلافة بعد وفاة المأمون. فتح عمورية من بلاد البيزنطيين الشرقية. وشيد مدينة سامرا بعد أن ضاقت بغداد بجنده وتوفي بها.

والواثق بالله (196 - 232) هو أبو جعفر هارون بن المعتصم كان أديبًا شاعرًا. ويقال إنه كان حسن الصوت ويتقن الغناء. اتبع نهج عمه المأمون في تنشيط العلوم.

والمتوكل (٢٠٦ - ٢٤٧) قتل غيلة على يد بعض قواده الأتراك. أبطل الجدل والخوض في مسألة خلق القرآن. ويقال إن عهده كان عهد رخاء ونضارة (انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء 284 - 330، ومحمد الخضري: الدولة العباسية 369 - 396). =

وقد استقرأ أحد الباحثين المعاصرين المواقف المتعددة من مسألة (خلق القرآن)، وخلص إلى حصرها في ستة مواقف، منها اثنان قصيّان يقفان على طرفي نقيض هما:

1 - القرآن كلام الله مخلوق، وهو قول جعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وكثير من الخوارج، والشيعة، وبعض المرجئة والمعتزلة جميعًا.

2 - القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو قول أصحاب الحديث والسنة، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل.

وهناك أربعة مواقف متوسطة تتلخص فيما يأتي:

1 - القرآن كلام الله المقروء صفة قائمة به قديمة، والقراءة محدثة مقروءة، وهو قول الكلّابية، نسبة إلى عبد الله بن كلاب.

2 - القرآن كلام الله: الكلام النفسي منه قديم، والعبارة عنه مخلوقة، وهو قول الأشاعرة.

3 - القرآن لا يقال عنه إنه مخلوق، ولا يقال عنه إنه غير مخلوق، بل «نقف»، وأصحاب هذا الرأي هم (الواقفة).

4 - القرآن كلام الله غير مخلوق، ولفظي به مخلوق، وقراءتي له مخلوقة. وهو مذهب اللفظية[1].

= ويروى أن أول من قال إن القرآن مخلوق هو الجعد بن درهم في العصر الأموي فقتله خالد بن عبد الله القسري بالكوفة. وقال مثل ذلك الجهم بن صفوان، وكان المعتزلة هم أعلى الناس صوتًا فخاضوا في حديث خلق القرآن خوضًا شديدًا ابتداءً من عهد الرشيد، ولكنه لم يشجع المعتزلة على ذلك الخوض، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة. (انظر أبا زهرة: ابن حنبل 38 - 39).

ومما يروى عن أحمد بن حنبل قوله «إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على إسماعيل بن علية، فإنه أدخل عليه فقال له: يا ابن الفاعلة أنت الذي تقول كلام الله مخلوق؟!» (السيوطي: تاريخ الخلفاء 281).

(1) د. فهمي الجدعان: المحنة. وانظر تفصيل ما سبق 19 - 40. =

وكان المعتزلة - كما ألمحنا من قبل - يعتنقون مبدأ القول بخلق القرآن ويتحمسون له إلى أقصى درجات التحمس، فلما جاء المأمون أحاط به المعتزلة، وكان جل حاشيته من رجالهم وأدناهم هو إليه، وقربهم زلفى نحوه، وأكرمهم أبلغ الإكرام، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام القوطي - من أئمة المعتزلة - تحرك له، حتى يكاد يقوم، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس. والسبب في ميل المأمون للمعتزلة ذلك الميل أنه كان تلميذًا لأبي الهذيل العلاف في الأديان والمقالات، وأبو هذيل من رؤوس المعتزلة[1].

وتبنى المأمون هذه الدعوة وظل وفيًّا لها إلى أن مات، ففي وصيته قبل موته بساعات أو أيام «... وأن الله خالق، وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئًا له مثل، ولا شيء مثله تبارك وتعالى ...».

وفي الوصية ذاتها يوجه الحديث إلى أخيه المعتصم «ادن مني واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن»[2].

وكان **لأحمد أبي دؤاد**[3] القدح المعلي في هذه الدعوة، وامتحان الآخرين،

= ومن عجب أن نرى الشيخ عبد المتعال الصعيدي يقول بالرأي الثاني (قول الأشاعرة) دون أن ينسبه إليهم وذلك بعبارة توهم أنه رأى من ابتكاره فيقول بالحرف الواحد «على أن القرآن له إطلاقات لأنه يطلق على الكلام النفسي القائم بذاته تعالى، ويطلق على ما بين دفتي المصحف من الألفاظ المركبة من الحروف والأصوات، والأول غير مخلوق قطعًا والثاني مخلوق قطعًا، ولو أن المأمون وخصومه حرروا موضع الخلاف في هذه القضية على هذا الوجه لم يحصل خلاف بينهم، ولوفروا على المسلمين ما ضاع عليهم من الزمن في هذا الخلاف.. إلخ (القضايا الكبرى في الإسلام 253).

(1) أبو زهرة: ابن حنبل 39.

(2) تاريخ الطبري 8/ 647.

(3) أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي (160 - 240) ولد بالبصرة ونشأ بها في طلب العلم وخصوصًا الفقه وعلم الكلام. وكان من أصحاب واصل بن عطاء لذلك مال إلى الاعتزال. وكان عالمًا وشاعرًا وأديبًا مجيدًا فصيحًا. عينه المعتصم «قاضي القضاة» وبلغ أرقى مكانة في عهده حتى قيل إنه لم يكن يبرم أمرًا إلا برأيه. (انظر وفيات الأعيان 1/ 81 - 91) وانظر كذلك محمد الخضري: الدولة العباسية 320 - 324.

وتقييم أقوالهم، واستخدام العنف معهم على مدى عهود الخلفاء الثلاثة: المأمون والمعتصم والواثق، وبلغ من اعتزاز المأمون به حرصه على أن يوصي به أخاه المعتصم، فجاء في وصيته الأخيرة «... **وأبو عبد الله بن أبي دؤاد فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع لذلك منك**»[1].

وبدأت المحنة تأخذ صورتها التنفيذية متدرجة متصاعدة على عدة مراحل، وذلك في الكتب الأربعة التي وجهها المأمون وهو في الرقة إلى عامله في بغداد إسحاق بن إبراهيم:

ففي ختام كتابه الأول[2] يقول لإسحاق: «.. فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله».

والكتاب أمر صريح لوالي بغداد بحرمان كل من لم يقل بخلق القرآن من وظائف الدولة، ورفض شهادتهم من فقهاء وعلماء ومحدثين وعمال. وعليهم أن

(1) تاريخ الطبري 8/ 647.
(2) تاريخ الطبري، 8/ 631 - 634.

يعلنوا ذلك على رؤوس الأشهاد، واعتبر القول بغير ذلك أو السكوت عنه تنكب عن سبيل الهدى والنجاة والتوحيد.

وفي كتاب تالٍ يأمر المأمون عامله إسحق بن إبراهيم بالقبض على المخالفين، ووضعهم في أغلال الحديد، وإرسالهم إليه في الرقة، ومما جاء في هذا الكتاب[1]، «... ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق.. فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعًا على السيف إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله[2].

وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على رفض القول بخلق القرآن، فشدا في الحديد، ووجها إلى الرقة حيث المأمون، ولكن المنية وافته قبل أن يصلوا إلى المأمون، فأعيدا إلى بغداد[3].

---

(1) انظر نص الكتاب في السابق 8/ 640 - 644.

(2) تاريخ الطبري، 644.

(3) أبو زهرة: ابن حنبل 51.

ويرى أبو زهرة أن كاتب هذه الكتب الأربعة الطوال هو أحمد بن أبي داؤد، فالمأمون كان يرى خلق القرآن منذ تولي الخلافة بل قبلها، وكان يناقش فيه ويدعو إليه في مجلس مناظراته، من غير أن يكشف عن القلوب ويمتحن العقول وينزل البلايا، فلماذا تحول هذا التحول في آخر حياته، لماذا نقل المسألة إلى الابتلاء؟ لا شك أن أحمد بن أبي دؤاد كاتب هذه الكتب هو المحرض، ولا بد أنه استغل حالة ضعف نفسي في المأمون، فهو يكتب الكتب بتلك اللغة وحرص على كتابتها متضمنة ما تضمنت من ابتلاء واختبار.

ويتساءل أبو زهرة مؤكدًا رأيه السابق:

لماذا لم يتخذ المأمون – وهو ببغداد والعلماء جميعًا حوله، ولم يدع إلى الامتحان إلا وهو غائب عن بغداد بالكتب يرسلها، ثم يكون ذلك قريبًا من موته!!؟ إنه سلطان أحمد بن أبي داؤد الكامل قد اتخذ فيه اسم المأمون، ولم تكن إرادة المأمون في الأمر كاملة، ولم تكن له قوته الحازمة.. (ابن حنبل 52).

وكان البلاء أشد وأعتى في عهدي المعتصم والواثق، وتعددت صور المحنة ما بين ضرب وسجن وقتل. وقد «بويع المعتصم بالخلافة بعد المأمون في شهر رجب سنة 218هـ، فسلك ما كان المأمون عليه، وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقًا من العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل، وكان ضربه في سنة عشرين»[1].

وممن امتحن في القرآن المحدث الفقه عفان بن مسلم بن عبد الله الصقار البصري، ويقال إنه أول من امتُحن في ذلك، إذ استدعاه اسحاق بن إبراهيم، وأمره بأن يقول بما يقول المأمون من خلق القرآن، فرفض فقطع عنه رزقه بأمر الخليفة، وأخذ يردد في حضرة إسحاق بن إبراهيم ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، ومات بعدها بأيام (سنة 220هـ)[2].

ومنهم عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم الذي ضُرب في عهد المأمون في مسجد مصر قرابة ثلاثين سوطًا في غلالة[3].

ومنهم أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، وهو من أشراف بغداد، وكان يستنكر القول بخلق القرآن، ويقدح في «الواثق»، فقبض عليه، وقتله بسامراء، وبعث برأسه إلى بغداد، فنصب فيها ست سنين، وجسده بسامراء سنة 231هـ[4]، وعلقت في أذن الرأس رقعة كتب فيها «هذا رأس الكافر المشرك الضال، وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه»[5].

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء 310.

(2) أبو العرب: كتاب المحن 433 - 434.

(3) السابق 434.

(4) السابق 252 وتاريخ الطبري 9/ 135 وما بعدها.

(5) تاريخ الطبري 9/ 139.

وقبض على أتباعه ومريديه، ووضع نيف وعشرون رجلًا منهم في الحبوس المظلمة، ومنعوا من أخذ الصدقة التي يعطاها أهل السجون، ومنعوا من الزوار وثقلوا بالحديد[1].

ومنهم نعيم بن حماد (ت 229) من أهل مرو، قبض عليه في مصر، وأشخص إلى بغداد في عهد المعتصم مقيدًا بالحديد، ولم يستجب للقوم في القول بخلق القرآن فحبس بسامراء، وظل محبوسًا بها حتى مات سنة 229، فجُر بقيوده وأُلقي في حفرة، ولم يكفن، ولم يصل عليه[2].

وكان أحمد بن حنبل (رحمه الله) هو أشهر من ابتلى بهذه المحنة. ومما يروى من مظاهر محنته ما حدث به أبو عمران موسى بن الحسن البغدادي، قال: حضرت أمر أحمد بن محمد بن حنبل، وقد حمل إلى المأمون، وكان ببلاد الروم، فقدم «طرسوس»، فكتب المأمون إلى عامله «بطرسوس» ووجه إليه بكتاب، فقال «اقرأه عليه، فإن أقر بما فيه، وإلا اقطع يديه ورجليه» فقرأ عليه الكتاب، فقال له أحمد «القرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق». فأراد العامل إنفاذ أمر المأمون، فقام رجلان من أهل الدين والفضل دون أحمد يقال لهما: محمد وإسحاق ابنا الطباع، وقام معهما عالم من الناس، فمنعوه منه. وسلم أحمد إلى أيام المعتصم[3].

ويروي الإمام أحمد بن حنبل بعض ما وقع له أيام المعتصم (180 - 227) فقال «ناظروني يوم المحنة ونحن بحضرته - يعني أبا إسحاق المعتصم، وفي رجلي ثلاثة قيود قد أثقلتني، وجمعوا علي نحوًا من خمسين من المناظرين، فقلت لا أكلمكم

---

(1) تاريخ الطبري، الصفحة نفسها.
(2) ابن سعد 7/ 539. وانظر: أبو العرب: المحن 460.
(3) أبو العرب: كتاب المحن 435.

إلا بما في كتاب الله أو سنة رسوله، فقطعتهم فلكزني عجيف[1] بقائم سيفه، وقال: أنت وحدك تريد أن تغلب هذا الخلق، ولكزني إسحاق بن إبراهيم[2] بقائم سيفه - وأشار بن حنبل إلى عنقه - قال (إسحاق): وأنت تقول إلا ما كان في كتاب الله أو سنة رسوله؟ فقال المعتصم: خذوه».

فأخذوا بضبعي (عضدي) فخلعوني، فأنا أجد ذلك في كتفي إلى الساعة. وكانا جلادين، فكان يضرب كل واحد منهما سوطًا ويتنحى، فضرب ثلاثين سوطًا يقال إنها تعدل ثلاثمائة سوط[3].

وقد جاءه عمه وهو بين العقابين[4]، وقد ضرب إلا أنه لم يحل عنه، وقد أرخى أحمد رأسه فقال: يا ابن أخي، قل القرآن مخلوق على التقية. فرفع أحمد رأسه إليه وقال له: يا عم: إني عرضت نفسي على السوط فصبرت، وعرضت نفسي على النار فلم أصبر[5].

وظل أحمد في الحبس تسعة وعشرين شهرًا، وقيل كان مكثه في السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلي عنه ثمانية وعشرين شهرًا[6]، وكان أثر الضرب بيّنا في ظهره إلى أن توفي (رحمه الله) ولم يزل بعد أن برئ يحضر الجمعة والجماعة، ويفتي ويحدث حتى مات المعتصم[7].

---

(1) عجيف بن عنيسة أحد قواد المعتصم قتل سنة 223 (ابن الأثير: الكامل 6/ 492).

(2) إسحاق بن إبراهيم بن الحسين المصعبي الخزاعي صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وكان وجيهًا مقربًا من الخلفاء. ت سنة 235 (ابن الأثير الكامل 7/ 17).

(٣) كتاب المحن: السابق 438.

(4) العقابان خشبتان يشبح الرجل بينهما للجلد. أي يشد بينهما، حتى يسهل القيام بجلده (لسان العرب 4/ 2/83 ، 3029).

(5) أبو العرب: كتاب المحن 438.

(6) السابق الصفحة نفسها.

(7) انظر صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، 6/ 365 - 367.

ولما تولى الواثق (196 - 232) أعاد المحنة على أحمد، ولكنه لم يتناول السوط، وضرب أحمد كما فعل المعتصم، إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس، وزاد فكرته ذيوعًا، ومنع دعوة الخليفة أن تذيع وتفشو، فوق ما ترتب على ذلك من سخط العامة، ونقمة من سماهم ابن أبي دؤاد حشو الأمة، فإن العاقل يحسب لنقمتهم حسابًا؛ ولذلك لم يرد أحمد بن أبي دؤاد والواثق من بعد المعتصم أن يعيد الأذى الجسمي، بل منعه فقط من الاجتماع بالناس، وقال الواثق له «لا تجمعن إليك أحدًا ولا تساكني في بلد أنا فيه». فأقام الإمام أحمد مختفيًا، لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها، حتى مات الواثق[1].

ولما تولى المتوكل (232هـ) أوقف محنة القول بخلق القرآن، ومال إلى مذهب أهل السنة، واضطهد الشيعة والمعتزلة، ومنع الناس من الاشتغال بالفلسفة[2].

وظل أحمد بن حنبل ثابتًا على معتقده في أن «القرآن كلام الله ليس بمخلوق»، ويقال إن المتوكل كتب إليه يسأله من أمر القرآن لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة. فرد عليه أحمد بكتاب جاء فيه:

«... فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس وما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، فصرف ذلك كله، وذهب به بأمير المؤمنين، ووقع ذلك من المسلمين موقعًا عظيمًا، ودعوا الله لأمير المؤمنين، فأسأل الله أن يستجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين، وأن يزيد في نيته، ويعينه على ما هو فيه؛ فقد ذكر عن ابن عباس أنه قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم. وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو الذي أذهب إليه،

(1) أبو زهرة: ابن حنبل 56. وانظر كذلك البدوي: الإسلام بين العلماء والحكام (176 - 177).
(2) الصعيدي: القضايا الكبرى في الإسلام 251 - 252.

لست بصاحب كلام، ولا أدري الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله، أو حديث عن النبي (ﷺ)، أو عن أصحابه، أو عن التابعين رحمهم الله، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود»[1].

ويرى الدكتور فهمي جدعان أن القول في مقدار الضرر الذي ألحق بابن حنبل في المحنة من «أخذ» و «حمل» و «حبس» و «ضرب» يعتبر موضع نظر؛ لأن فيه خلافًا إذ يذكر بعضهم أنه ضرب ثمانين سوطًا، ويذكر آخر أنه ضرب ستة وثلاثين، ويورد ثالث ثمانية وثلاثين سوطًا[2].

وحتى لو قلنا افتراضًا إن هناك من كانت محنته أشد وأعتى من محنة أحمد بن حنبل، فإن هذا لا يعني التهوين من شأن محنة ابن حنبل؛ فمن الخطأ الحكم على أبعاد المحنة بهذا المعيار الكمي، بل يجب أن ينظر في تقييمها إلى اعتبارات أخرى، مثل سن الإمام حين إلقائه في السجن، وتقييده بالحديد، وجلده، إذ كان قد بلغ سن الشيخوخة. ومما يبشع من شأن المحنة كذلك مكانته العلمية والفقهية إمامًا ومحدثًا؛ فلطمة واحدة يلطم بها مثله لا يقاس بها آلاف السياط تنزل على واحد من العامة، أو مغامير المتعلمين؛ فالإضرار الأدبي والنفسي أشد وأنكى على نفس مثله من الضرر الجسماني، مهما كانت درجته[3].

---

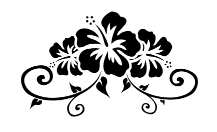
(1) انظر أبي نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 9/ 219.
وابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد بن حنبل 389.

(2) جدعان: مرجع سبق 153.

(3) وإن كانت بعض الروايات قد بالغت إلى حد كبير فيما نزل بأحمد بن حنبل كتلك التي تقول إن أحد الجلادين الستين الذين استدعاهم المعتصم لضرب الإمام أحمد ضربه سوطين شق منهما خصريه، وسالت أمعاؤه، فأمر به فأخرج من الحديد، وشد بشبوت تام. (أبو العرب: كتاب المحن 436).
والمبالغة واضحة في هذا الخبر؛ إذ لو صح ما عاش ابن حنبل ساعة أو بعض ساعة مع أنه عاش بعد ذلك ما لا يقل عن عشرين عامًا.

وصار الإمام أحمد – كما يقول ابن تيمية – مثلًا سائرًا يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق، فإنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، حتى صارت الإمامة مقرونة باسمه، في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد، وهذا مذهب الإمام أحمد... وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية[1].

ويقول أبو الحسن الندوي: وخرج أحمد بن حنبل من هذه المحنة خروج السيف من الجلاء، والبدر من الظلماء، وكان كما قال بعض معاصريه «أدخل الكير فخرج ذهبًا أحمر»، ولم يزل بعد ذلك اليوم في صعود واعتلاء حتى تواضعت القلوب على حبه، وأصبح حبه شعار أهل السنة، وأهل الصلاح، حتى نقل عن أحد معاصريه أنه قال «إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة»[2].



(1) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل 1/ 307.

(2) رجال الفكر والدعوة في الإسلام 142.

الخاتمة

في الصفحات السابقة عشنا مع «الابتلاء» بمفهومه اللغوي، ومفهومه الاصطلاحي، وتوظيف الكلمة، ومترادفاتها، أو شبيهاتها المعنوية في سياق القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وما تعكسه من دلالات، وما تثيره من قضايا في رحاب النفس والمجتمع والكون.

كما عرضنا لأنواع الابتلاء الرئيسية وهي: الابتلاء بالضراء، والابتلاء بالسراء، والابتلاء بالآيات، وما يندرج تحت النوعين الأول والثاني من ألوان وحالات مختلفة. ووقفنا أمام كل لون أو كل حالة، واستخلصنا منها ما تعكسه من دلالات، وما تفيده من دروس وعظات وحكم أثرت وتؤثر في حياة المسلمين وكيانهم، وتوجيه مسيرتهم، وطرائقهم وتعاملهم ومواجهتهم للأعداء، والمشكلات، والصعاب في السلم والحرب.

وكان عمدتنا فيما عرضنا واستخلصنا كتاب الله، وسنة نبيه من ناحية، وبعض النماذج التاريخية من ناحية أخرى، وهي مأخوذة من تاريخ الإسلام، وما قبل الإسلام. وفي مقام ذكر ما توجه إليه الابتلاءات من حكم ودروس ومواعظ نلتقي رسالة طيبة للعز ابن عبد السلام[1] ذكر فيها ما للمصائب والمحن والبلايا

(1) وعنوان الرسالة «الفتن والبلايا والمحن والرزايا أو فوائد البلوى والمحن».
والعز بن عبد السلام (577 - 660هـ) ولد بدمشق، وتوفر على علوم اللغة والقرآن والفقه على المذهب الشافعي، وجلس للتدريس والإفتاء والقضاء والخطابة والتأليف، وانتهى به الأمر إلى استقراره في القاهرة وعاش بها 28 سنة، وبها توفي، بعد أن عاصر نهاية الدولة الأيوبية وحكم أربعة من سلاطين دولة المماليك الأولى حتى أيام الظاهر بيبرس. تولى قضاء مصر والخطابة في مسجد عمرو. ثم اعتزل القضاء، وتفرغ للإفتاء والتأليف. كان يلقب بسلطان العلماء وشيخ الإسلام. ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، وله فتاوى جريئة واجه بها بعض حكام عصره. وكان محبوبًا مقدرًا من الناس، وخرج في جنازته من الناس ما لم تشهد القاهرة مثله عددًا وزحامًا. (انظر: أحمد عطية الله: القاموس الإسلامي 5/364 - 366).

من فوائد تختلف باختلاف الناس، وهي للحق رسالة جمعت فأوعت. **وفي السطور التالية نقدم هذه الفوائد بشيء من الإيجاز:**

1 - معرفة عز الربوبية وقهرها.

2 - معرفة ذلة العبودية وكسرها.

3 - الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في دفع الشدائد إلا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه.

4 - الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه.

5 - التضرع والدعاء: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ (الزمر: 49).

6 - الحلم عمن صدرت عنه المصيبة:

7 - العفو عن جانيها ﴿.. وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 134).. والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

8 - الصبر عليها، وهو موجب محبة الله تعالى وكثرة ثوابه:

9 - الفرح بها لأجل فوائدها.

10 - الشكر عليها؛ لما تضمنته من فوائدها، كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه، المانع له من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء.

11 - تمحيصها للذنوب والخطايا:

12 - رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم،

13 - معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها؛ فإن النعم لا يعرف مقدارها إلا بعد فقدها.

14 - ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

15 - ما في طيها من الفوائد الخفية ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19).

16 - إن المصائب والشدائد تمنع من الشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر والتجبر.

17 - الرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر، فمن سخطها فله السخط، وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا، والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ (التوبة: 72) أي من جنة عدن ومساكنها الطيبة[1].

ويمكن تصنيف الفوائد التي ذكرها العز بن عبد السلام في ثلاث نوعيات أساسية من القيم، كان لها تأثيرها الكبير في تشكيل الشخصية المسلمة، وفي حياة المسلمين، وهي:

1 - قيم إيمانية روحية.

2 - قيم نفسية وتربوية.

3 - قيم سلوكية.

وقد رأينا كيف كانت حياة الرعيل الأول من المسلمين سلسلة من الابتلاءات والمحن. بدأت من بعث محمد (ﷺ) نبيًا ورسولاً، وإعلان دعوته لعشيرته الأقربين، وكانت الفترة المكية على مدى ثلاثة عشر عامًا مشحونة بالابتلاءات والشدائد والإيذاء البدني والنفسي:

- فرفض الكفار دعوة النبي (ﷺ)، وكذبوه، واتهموه - وهو الصادق الأمين بشهادتهم قبل بعثته - بالكذب والسحر والجنون.
- ووسعوا من دائرة هذه الافتراءات، فأخذوا ينشرونها في موسم الحج على رؤوس الأشهاد جهرًا بين قاصدي بيت الله الحرام من قبائل العرب.
- وكان أبو لهب - وهو عمه - من أشد الناس إيذاء له وتشنيعًا عليه: فدفع ولديه عتبة وعتيبة - بإصرار وشدة - إلى تطليق زوجتيهما: بنتي رسول الله (ﷺ) رقية وأم كلثوم، ولا ذنب لهما إلا أن أباهما (ﷺ) بعث نبيًا ورسولاً.

(1) انظر العز بن عبد السلام: مرجع سابق 9 - 22.

- ومن خسته فرحه واستبشاره لما س عبد الله الابن الثاني لرسول الله (ﷺ)، وأخذ يشيع في الناس أن محمدًا صار «أبتر» أي لا عقب له.
- وكان يجول خلف النبي (ﷺ) في موسم الحج والأسواق لتكذيبه علانية أمام الوافدين للحج.
- وكان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه.
- وكان بيته لصيقًا لبيت رسول الله (ﷺ)، فكانت زوجته أم جميل تضع في طريقه الحطب ذا الأشواك القاسية المدمية.
- وكان من جيرانه المشركين من يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي.
- وعزله كفار قريش هو وبنو هاشم في شعب أبي طالب عدة سنوات، وأعلنوا مقاطعتهم، وحرموا على أنفسهم مصاهرتهم والتعامل معهم، وكان من أشق السنوات على رسول الله (ﷺ) ومن معه.
- وحاولوا اغتياله في بيته، ولكن الله (سبحانه وتعالى) أنقذه بالهجرة إلى المدينة.
- وابتلاه الله بموت أهم سندين له من البشر وهما خديجة زوجته، وعمه أبو طالب في عام واحد سمي لشدته «عام الحزن».

هذا ما نزل بالنبي (ﷺ) من شدائد، وصاحب ذلك ما نزل بالمسلمين - وخصوصًا العبيد والضعفاء - من تعذيب وأذى وانتهاكات:

- فقامت كل قبيلة بتعذيب من «صبأ» منها أي أسلم، ومن ليس له قبيلة تولى أمره السادة، وسفلة قريش وأوباشها.
- ويقال إن أبا جهل - صاحب القدح المعلّى في حملات التعذيب وعملياته - كان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.
- وكان عم عثمان بن عفان يلف عثمان - بعد أن أسلم - في أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته (أي يعرضه للنار).

- وكانت أم مصعب بن عمير تجيعه وتطرده من البيت، فتخشف جلده تخشف الحية.
- وكان أمية بن خلف يضع في عنق عبده بلال بن رباح حبلًا، ويسلمه للصبيان يطوفون به جبال مكة وطرقاتها، ويكرهه على الجوع، ويطرحه في حر الظهيرة، ثم يأمر بصخرة ضخمة فتوضع على صدره. هذا غير ضربه الدائم بالعصا.
- وفي الرمضاء طُرح آل ياسر، وعذبوا تعذيبًا وحشيًّا مات منه ياسر، وقتل أبو جهل زوجته سمية بطعنة من رمحه، ولم يعش منهم إلا عمار.
- ومن الذين ابتلوا بالتعذيب الرهيب خباب بن الأرت، بل نزل مثل هذا العذاب بإماء أسلمن مثل: زنيرة، والنهدية، وابنتها، وأم عبيس[1].

وهذه الشدائد التي ابتلي بها النبي (ﷺ) والمسلمون في مكة تكشف لنا عن حقائق متعددة، من أهمها:

1 - أن النبي (ﷺ) كان يعيش «لدعوته»، بل «يعيش دعوته»، وأنه أرصد لها كل جهده وطاقته ونفسه وحياته اضطلاعًا برسالة النبوة الخاتمة، واستجابة لأمر الله، غير مبال بما يتعرض له من أخطار، وما ينزل به من إيذاء، فكان المثل الأعلى، والأسوة الحسنة للمسلمين.

2 - أن صورة النبي المبتلى الصابر، الثابت على اليقين، كانت نصب عيون المسلمين الذين نزل بهم الأذى والتعذيب الذي امتد مداه سنوات وسنوات، فكانوا يتأسون بالنبي (ﷺ) في التحمل والتقبل، صابرين ثابتين محتسبين، وكذلك مستهينين بما ينزل بهم من عذاب.

(1) انظر سيرة ابن هشام 1/ 263 - 269، 294 - 301، 316 - 320.
والمقريزي: إمتاع الأسماع 8/ 2600.
وارجع كذلك إلى المباركفوري: الرحيق المختوم 80 - 86.

3 - ودل هذا الابتلاء على عظمة الشارع وعظمة شريعته، فاعتبارًا للأحداث والوقائع - كمنهج القرآن المطرد في معالجة الأمور - بدأ ظهور «فقه الابتلاء»، ومثال ذلك أن عمار بن ياسر رأى كيف استشهد أبوه من أثر التعذيب، واستشهدت أمه بطعنة من حربة بيد عدو الله أبي جهل، وشدد الكفار العذاب عليه بالحر تارة، وبوضع الصخر أحمر على صدره تارة أخرى، وقالوا لن نتركك حتى تسب محمدًا، أو تقول في اللات والعزى خيرًا، فوافقهم على ذلك مكرهًا، وجاء باكيًا معتذرًا للنبي (ﷺ)، فأنزل الله (سبحانه وتعالى) قوله: ﴿... إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: 106).

وبذلك رخص الله للمؤمن أن ينطق بكلمة الكفر تقيَّة، إذا خاف على نفس هالهلكة، ما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان. وهذا من عظمة التشريع، واتساق جوانبه وواقعيته دون تناقض، فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

4 - وابتلاء المسلمين في الفترة المكية دليل على مصداقية العقيدة الإسلامية، ومصداقية الرسول (ﷺ)؛ لأنه تطبيق عملي لسنّة الله في الدعوات، فهي المحن تنزل بالأنبياء والرسل والمؤمنين على مدار التاريخ الإنساني، لتميز الخبيث من الطيب، ويستدرج البغاة إلى العذاب، ويكون النصر «للحق» في النهاية.

5 - ولا يستطيع أحد أن ينكر **أن التأثير البالغ لما نزل بالمسلمين في مكة من بلاء يتمثل في «تأهيلهم» لتحمل أعباء الدعوة في مسيرتها**؛ فقد صقل نفوسهم بطاقة إيمانية، لا تغلب بعد أن اكتسبوا الدروس، وتبينوا الحقائق السابقة في طبيعة الدعوة، وطبيعة الداعي، وطبيعة الطغاة البغاة.

وتساوى في هذا «**التأهل**» رجل من العلية أصحاب العز والثراء، كمصعب بن عمير الذي عذبته أمه وأهله بالجوع والطرد، وعبد فقير لا أهل له ولا عصبية ولا مالاً، كبلال بن رباح.

وحتى نعي قيمة هذا التأثير أو هذا التأهيل بالإعداد الروحي والبدني، لنفترض أن المسلمين لم ينزل بهم في مكة ما نزل، وأنهم هاجروا إلى المدينة، واستقروا بها، دون أن ينال واحد منهم أية شدة أو مكروه بمكة، ترى هل كانوا يستطيعون مواجهة القوى «المضادة» في مجتمع المدينة، والتي تتمثل بصفة أساسية في المنافقين واليهود؟ إن الإجابة تقرر أنه - على أحسن الفروض - كانت المواجهة، وكسر هذه القوى ستستغرق من الوقت أضعاف ما استغرقت، لذلك كان من فضل الله أن «تأهل المسلمون» في مكة بالبلاء قبل هجرتهم إلى المدينة، ليكملوا مسيرتهم في موكب الإيمان،

وبالرعيل المبتلى في مكة، وبالمدد الجديد من الأنصار استطاع المسلمون أن يكسروا قوى الشر والكفر من منافقين ويهود، ثم القضاء على الشرك في جزيرة العرب، ثم القضاء على امبراطوريتي البغي والظلم والجبرية فارس والروم.

وفي عهد أبي بكر (رضي الله عنه) استطاعوا أن يقضوا على الردة.

وفي عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تحملوا محنة المجاعة في عام الرمادة، وتحملوا - عن رضى بقضاء الله وقدره - محنة طاعون عمواس.

ولم يعد «لمعيار الكم» قيمة في حساب المسلمين، بعد أن ثبت في معجمهم قاعدة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 249)، وأصبحت هذه القاعدة مطردة في حياتهم، وهم يواجهون أعداءهم، ويحققوا بإذن الله الانتصار تلو الانتصار.

وأخيرًا لا يستطيع مسلم أن يملك نفسه من الحزن وهو يرى أن أغلب المسلمين، يعيشون في «دائرة المحن والبلاء» اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وعلميًّا، وما حدث في البوسنة والهرسك، وما حدث للمسلمين في كوسوفا من مذابح وحشية عاتية، وما نراه من عربدة إسرائيل وقوى البغي العالمية التي تساندها. ثم نقف أمام السؤال التقليدي: وما الحل؟ كيف يتخلص المسلمون من هذا البلاء؟ وكيف يعود للمسلمين كيانهم، ومكانتهم، ووجههم الحضاري الزاهي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يعجز عنها فرد واحد، ولا تتسع لها صفحة أو صفحات، بعد أن استفحلت المشكلات، وعلت التراكمات، وظهرت مواضعات دولية جديدة. ولكني في هذا المجال الضيق أضع معالم على الطريق للاهتداء إلى الحل المرجوّ المنشود ومنها:

1 - العودة إلى الله، والتحلي بالقيم الإسلامية الأولى الصافية النقية؛ فإن آخر هذه الأمة لن ينصلح حاله إلا بهذه العودة في كل مجالات حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية والتعليمية.. وكل أولئك انطلاقًا من كتاب الله، وسنة رسوله (ﷺ)، مع الانتفاع بمعطيات الحضارة الغربية فيما لا يتعارض مع ديننا وثوابتنا.

2- تحقيق الوحدة الإسلامية، بدءًا بتصفية الخلافات العربية، ولا مانع من البدء بعد ذلك باتخاذ خطوات في سبيل اتحاد أو وحدة اقتصادية عربية، أو سوق عربية مشتركة، تتسع دائرتها لتكون سوقًا عربية إسلامية مشتركة. وقد أثبت الباحثون أنه في هذه الحال يمكن تحقيق «التكامل الاقتصادي»، دون احتياج لمعونات غربية، أو الاستيراد من الأسواق الغربية.

3 - وعلى مستوى الشعوب يجب توجيه رؤوس الأموال العربية إيداعًا واستثمارًا إلى الأسواق والمشروعات في نطاق الدول العربية والإسلامية، مع إعطاء رؤوس الأموال هذه الضمانات الكافية.

4 - مد الشعوب الإسلامية المحتاجة بالمعونات وخصوصًا الشعوب الفقيرة التي تعرضت لمحن الجوع والقحط، مع ملاحظة أن تكون أغلب هذه المعونات «**معونات إنتاجية**»، في هيئة مصانع، أو استصلاح أراضٍ واستزراعها، فهذا أبقى وأنفع من المعونات الاستهلاكية من طعام وكساء، وما شابه ذلك، مع الإبقاء على المعونات الأخيرة إلى أن تثمر المعونات الإنتاجية، وتأتي أكلها.

5 - إنشاء صندوق عربي إسلامي باسم (**دينار الإنقاذ**)، أو ما شابه ذلك، تتبناه الدول العربية والإسلامية شعوبًا وحكومات، وذلك في شكل تبرع رمزي،

أو ضريبة رمزية، تفرض على الخدمات المختلفة، وتذاكر السفر، وطوابع المصالح الحكومية.. إلخ، والحصيلة تنفق للتخفيف من أزمات الدول الفقيرة.

6 - إمداد المجاهدين في كل مكان بما يحتاجونه من مال وسلاح، حتى يستطيعوا تحرير أرضهم وشعوبهم، وليكن ذلك سرًّا، وبطرق حكيمة؛ إذا سببت العلانية حرجًا أو صدامًا مع الآخرين.

7 - وإذا صعب حاليًا إنشاء «**جيش إسلامي**» لمواجهة أعداء العرب والمسلمين، فلا أقل من التركيز في مناهج التدريس على فقه الجهاد، وأن يُهتم بالجانب التربوي السلوكي في تدريس فروع مادة «التربية الدينية».

هذه بعض المعالم التي يمكن أن يستأنس بها، وهي قليلة جدًا إذا ما نظرنا إلى فداحة المحن التي نزلت وتنزل بالمسلمين. مما يحتاج إلى تشخيص أعمق، ودراسة أوفى. والله ولي التوفيق.



المـــراجـــع

1 - **الابتلاءات: أساليب الكفرة في محاربة الدعوة في عصر النبوة:** حمود بن عبد الله المطر. دار طويق للنشر – الرياض – الطبعة الأولى 1416هـ/ 1995م.

2 - **الابتلاء والمحن في الدعوات:** د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة 1990م.

3 - **ابن حنبل: حياته وعصره – آراؤه وفقهه:** محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة، 1418هـ/ 1997م.

4 - **إحياء علوم الدين:** أبو حامد الغزالي. دار الشعب القاهرة (د.ت).

5 - **أدب الخلفاء الراشدين:** د. جابر قميحة. دار الكتاب المصري اللبناني. القاهرة – بيروت 1985م.

6 - **أدب الرسائل في صدر الإسلام: الجزء الأول.. عهد النبوة.** د. جابر قميحة. دار الفكر العربي. القاهرة 1406هـ/1986م.

7 - **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود):** أبو السعود محمد بن محمد العمادي. مكتبة محمد صبيح. القاهرة (د.ت).

8 - **أساس البلاغة.** الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. دار المعرفة. بيروت (د.ت).

9 - **أسباب النزول:** الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق الدكتور السيد الجميلي. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الرابعة 1412هـ / 1991م.

10 - **الاستيعاب في أسماء الأصحاب.** ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي المالكي (بهامش الإصابة لابن حجر). دار الفكر. بيروت (د.ت).

11 - **أسد الغابة في معرفة الصحابة**. عز الدين بن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد الجزري. تحقيق: محمد البنا ومحمد عاشور. دار الشعب. القاهرة (د.ت).

12 - **الإسلام بين العلماء والحكام**: عبد العزيز البدري. باكستان 1399هـ.

13 - **الإصابة في تمييز الصحابة**. ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ثم المصري الشافعي. دار الفكر. بيروت (د.ت).

14 - **الأعلام**: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة. يناير 1979م.

15 - **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**: أبو بكر جابر الجزائري. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة - الطبعة الثالثة - 1418هـ/ 1997م.

16 - **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (المغازي)** الحافظ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الفارقي. تحقيق محمد محمود حمدان. دار الكتاب المصري - اللبناني القاهرة - 1405هـ/ 1985م.

17 - **تاريخ الخلفاء**. السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. دار الفكر. بيروت (د.ت).

18 - **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة 1977م.

19 - **التصوير الفني في القرآن**: سيد قطب. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الثامنة 1403هـ - 1983م.

20 - **تفسير الجلالين**: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار المعرفة. بيروت (د.ت).

21 - **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**: محمد عبده ورشيد رضا. دار المنار. القاهرة. الجزء الثاني. الطبعة الثانية 1350هـ، والجزء الرابع. الطبعة الثالثة 1350هـ، والجزء الرابع. الطبعة الثالثة 1367هـ.

22 - **تفسير القرآن العظيم:** ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي. أبو الفدا عماد الدين. مكتبة الإيمان. المنصورة. مصر. الطبعة الأولى 1417هـ / 1996م.

23 - **التفسير الوجيز ومعجم معاني القرآن العزيز:** د. وهبة الزحيلي. دار الفكر. دمشق. الطبعة الأولى 1417هـ.

24 - **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري):** أبو محمد بن جرير الطبري. تحقيق صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت 1415هـ / 1995م.

25 - **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي):** أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الشعب. القاهرة (د.ت).

26 - **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة:** أحمد زكي صفوت. مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية 1391هـ / 1971م.

27 - **حديث الإفك:** عبد الحليم بن إبراهيم العبد اللطيف. نادي القصيم الأدبي. السعودية. الطبعة الأولى 1410هـ / 1990م.

28 - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:** أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي، القاهرة. 1938م.

29 - **حياة محمد:** د. محمد حسين هيكل. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثالثة عشرة - 1975م.

30 - **رجال الفكر والدعوة في الإسلام:** أبو الحسن الندوي. دار القلم. الكويت - الطبعة الثالثة 1389هـ - 1969م.

31 - **الرحيق المختوم:** صفي الدين المباركفوري. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت. الطبعة الأولى1416هـ - 1996م.

32 - **الرسول حياة محمد:** ر. ف. بودلي. ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار. مكتبة مصر. القاهرة (د.ت).

33 - **السيرة النبوية**: ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية - 1375هـ - 1955م.

34 - **سيرة عمر بن الخطاب**: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي. المكتبة العربية. دمشق (د.ت).

35 - **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. القاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي. تحقيق محمد أمين قرة علي وآخرين مكتبة الفارابي. دمشق (د.ت).

36 - **الصبر والثواب عليه**: ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد. تحقيق محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

37 - **صحيح مسلم**. الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين حافظ. شرح النووي الشافعي أبي زكريا محيي الدين. تحقيق وإشراف عبد الله أحمد زينة. دار الشعب (د.ت).

38 - **الطب النبوي**. ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي. تحقيق وتعليق عبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثالثة 1402هـ - 1982م.

39 - **الطبقات الكبرى**. محمد بن سعد. عناية حمزة النشرتي وآخرين (د. ت. مكان الطبع).

40 - **عبقرية عمر**. عباس محمود العقاد. طبعة وزارة التربية القاهرة 1388هـ - 1968م.

41 - **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**. ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي: تحقيق وتعليق محمد عثمان الخشت. دار الكتاب العربي. بيروت 1414هـ - 1994م.

42 - **العقد الفريد**. ابن عبد ربه الأندلسي: أبو عمر أحمد بن محمد. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 1940م.

43 - **عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة (دراسة مقارنة)**. د. سليمان محمد الطماوي. دار الفكر العربي. القاهرة. الطبعة الأولى 1969م.

44 - **الفاروق عمر**. د. محمد حسين هيكل. مطبعة مصر القاهرة -1964م.

45 - **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تصحيح ومراجعة محمد فؤاد عبد الباقي وقصي محب الدين الخطيب. دار الريان للتراث. القاهرة. الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.

46 - **الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن**. عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني. دار القاسم للنشر والتوزيع. الرياض. الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م.

47 - **الفتن والبلايا والمحن والرزايا. أو فوائد البلوى والمحن**. العز بن عبد السلام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي. تحقيق إياد خالد الطباع. دار الفكر المعاصر. بيروت. الطبعة الثانية 1995م.

48 - **فتوح البلدان**. البلاذري. أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري. دار الكتب العلمية. بيروت 1398هـ - 1978م.

49 - **الفروق اللغوية**: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري. ضبط وتحقيق حسام الدين القدسي. دار الكتب العلمية. بيروت. 1401هـ - 1981م.

50 - **فقه السيرة النبوية (مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة)** د. محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر المعاصر. بيروت. الطبعة العاشرة 1411هـ - 1991م.

51 - **في ظلال القرآن**. سيد قطب. دار الشروق. القاهرة. الطبعة التاسعة 1400هـ - 1980م.

52 - **القاموس الإسلامي**. أحمد عطية الله. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1400هـ - 1980م.

53 - **القاموس المحيط**. الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الرابعة 1415هـ - 1994م.

54 - **قصص الأنبياء:** ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي: أبو الفدا عماد الدين. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

55 - **قصص الأنبياء.** عبد الوهاب النجار. مطبعة مصر. القاهرة. الطبعة الثالثة: 1372هـ - 1953م.

56 - **القصص في الحديث النبوي (دراسة فنية وموضوعية)** د. محمد بن حسن الزير. دار المدني. جدة. الطبعة الثالثة 1405هـ - 1985م.

57 - **القضايا الكبرى في الإسلام.** عبد المتعال الصعيدي. مكتبة درب الجماميز. القاهرة. (د.ت).

58 - **كتاب المحن.** أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي. تحقيق الدكتور يحيى وهيب الجبوري. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثانية 1408هـ - 1988م.

59 - **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.** الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. دار الفكر. بيروت. (د.ت).

60 - **لباب النقول في أسباب النزول.** السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. دار إحياء العلوم. بيروت؟ الطبعة الثامنة 1414هـ - 1994م.

61 - **لسان العرب. ابن منظور:** عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي. دار المعارف. القاهرة (د.ت).

62 - **مجموعة الرسائل والمسائل.** ابن تيمية: أحمد تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين. دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م.

63 - **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.** د. محمد حميد الله. دار الإرشاد. بيروت. الطبعة الثالثة. (د.ت).

64 - **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية.** محمد الخضري. مطبعة الجمالية. القاهرة. الطبعة الأولى 1334هـ - 1916م.

65 - **المحنة (بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام)**. د. فهمي جدعان. دار الشروق. عمان. الأردن. الطبعة الأولى 1989م.

66 - **مختار الصحاح**. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المطبعة الأميرية. القاهرة 1340هـ - 1922م.

67 - **معجم البلدان**. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. دار صادر - بيروت. الطبعة الثانية 1995م.

68 - **معجم مقاييس اللغة**. ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي. تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة الطبعة الثالثة. 1402هـ.

69 - **المعجم الوجيز**. مجمع اللغة العربية. القاهرة 1411هـ - 1991م.

70 - **مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير**. الفخر الرازي: محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري. المطبعة الشرفية. القاهرة. 1324هـ.

71 - **المفردات في غريب القرآن**. الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق وضبط محمد خليل عيتابي. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى 1418هـ - 1998م.

72 - **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**. ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. مكتبة الخانجي. القاهرة. (د.ت).

73 - **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**. ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. تحقيق دكتورة زينب إبراهيم القاروط. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثالثة. 1407هـ - 1987م.

74 - **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الكتاب الأول)**. د. أحمد شلبي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. الطبعة الأولى 1981م.

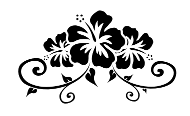
75 - **الموسوعة الفقهية**. إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. الطبعة الثانية. 1410هـ - 1990م.

76 - **الموطأ**. مالك بن أنس - تصحيح وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الشعب. القاهرة (د.ت).

77 - **النبأ العظيم**. د. محمد عبد الله دراز. دار طيبة الرياض. الطبعة الأولى 1417هـ - 1997م.

78 - **الوافي بالوفيات**. صلاح الدين الصفدي عناية. س. ايدرينغ فيسبادن. 1972م.

79 - **وَفَيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان**. ابن خلِّكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار صادر. بيروت 1398هـ - 1978م.




شباب
النادي الشبابي

المحتويات


النادي الشبابي





وأثره في حياة المسلمين

جهد علمي موثق يتناول واحدة من أهم القضايا في حياة الأمة هي قضية الابتلاء.. سنة الله في الإنسان وقدره المحكم الذي لا حيلة أمامه سوى الشكر أو الصبر.

رؤية تصل ماضي المسلمين بحاضرهم، وترسم بعض ملامح مستقبلهم برابط واحد هو موقفهم من الابتلاء وأثره في حياتهم ودوره في نصرهم وسيادتهم.

استعراض لهدي القرآن والسنة النبوية في الابتلاء، وكيف أنه يبدأ بخلق الإنسان، ويستمر حتى نهاية الكون ليتجلى في الآخرة أيضًا.

استجلاء للمنهج النبوي في الدعوة إلى الله، وكيف كانت قضية الابتلاء وقصصه ودروسه وعبره جزءًا أصيلاً من هذا المنهج المتفرد.

استدعاء لبعض صور الابتلاء في الأمم السابقة، سواء أكان بالخير أم بالشر، وعرض ما بهذه القصص من حكم وعظات نافعة.

تذكير للمسلمين بفوائد الابتلاء ودوره في تشكيل الشخصية الإيجابية الحركية التي تمضي في طريقها، وتتخطى حواجز الابتلاء بخفة المؤمن، فتطير فوقها بجناحي الصبر والشكر.





İletişim: media.mer.tr@gmail.com